14 me Année No. 687

Lundi—2—9—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
ص
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العــــدد ٦٨٧ « القاهرة فى يوم الإثنين ٦ شوال سنة ١٣٦٥ — ٢ سبتمبر سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

٤ — من لغو الصيف

هؤلاء الأرستقراط ... !

للاستاذ سـيد قطب

قلت : أذهب إلى « بلاج سيدى بشر رقم ٢ ، ورقم ٣ » أرى هؤلاء « الاسـتقراط » الذين خصهم الدولة بشواطئ خاصة ، لا تطؤها أقدام الشعب إلا لقاء جعل معلوم !

وأديت هذا الجعل ، وحملت فى يدى « تذكرة الدخول » بارزة ، فأنا رجل من الشعب . وما آمن أن يعترضنى شرطى أو حارس ، وأنا أسير فى الأرض المحرمة ، التى لا يجوز أن تطأها أقدام الشعب إلا بترخيص !

وسرت بحذر واحتراس ، أتوجس خيفة من كل خطوة — على رغم أنى أحمل الترخيص بالمرور — فأنا هنا فى وسط «الارستقراط » وأنا رجل من الشعب . وتعليمات الدولة المسطرة على المداخل توقع الرعب فى القلوب : « ممنوع دخول هذا البلاج لغير أصحاب الكابينات إلا ... الخ » ، وذكرنى هذا بتعليمات أخرى فى بعض الحدائق والأماكن : « ممنـوع دخول الكلاب إلا ... الخ » .

ورأيت الدولة قد اختارت أجمل مناظر الشاطئ على الاطلاق لتخص بها هؤلاء السادة المحظوظين . فبلاجا سيدى بشر رقم ٢ ورقم ٣ يلخصان جميع مناظر «الكورنيش» . مناظر الشواطئ الصخرية ، والشواطئ الرملية ، والشواطئ الصناعية ، والموج الصاخب ، والموج الهادئ ، والموج العميق .

وهل أقل من أن تجمع الدولة لهؤلاء السادة أجمل المناظر وأبهجها ملخصة فى الشاطئ المحرم ، الذى لا يجوز أن تطأه أقدام الشعب إلا بترخيص ؟ !

وسرت ترمقنى أنظار السادة كما ترمق العبيد ... من هذا الدخيل الواغل ؟ إنه رجل من الشعب . يا لهذا الشعب الطفيلى الذى لا ينى يعكر صفو السادة بهذا التطفل الغريب ... ولكنى أحمل الترخيص !!!

وانتبهت بعد هنيهة ، واستعدت رباطة جأشى ، وتقويت بهذا الترخيص الذى تحمله يدى ، فدسسته فى جيب قميصى وحرصت — مع هذا — على إبقائه ظاهراً ؟ !

لا بد أن يكون هؤلاء السادة يستحقون هذا التدليل . لا بد أنهم يترفعون بمستواهم وأخلاقهم عن العامة . لا بد أنهم «أرستقراط» فى نفوسهم ، قبل أن يكونوا أرستقراطا بجيوبهم ، وإلا فهل تقدم الدولة على عزلهم هكذا عن الشعب — فى نفس الوقت الذى تحارب فيه انعزال الطبقات — إلا لسبب معلوم !

ولكنى لا ألمح هنا امتيازاً خلقياً ولا نفسياً . إنهم — والشهادة لله — أوقح وأجرأ وأشد تبذلا من عامة الشعب فى « بلاجات » الشعب ، التى يمرح فيها بلا جعل ولا ترخيص !

شىء واحد يفرق هؤلاء السادة عن الشعب ... أنهم

لا يتكلمون لغة هـذا الشعب . اللغة العربية أو المصرية هنا غريبة ... ولقد سمعت الفرنسية والتركية والرومية ... ولـكنى لم أسمع العربيـة المصرية إلا من الخدم وحراس الشاطئ ... والمصريون هنا غرباء . عرفت منهم على ماهر ، ومكرم عبيد ، وإبراهيم عبد الهادى ، وعبد المنصف محمود ... وحفنة قليلة ممن تحمل وجوههم الطابع المصرى ... أما الأغلبية فمن ذوى الوجوه الحمر أو الوجوه البيض ...

مستعمرون !!! وليس الانجليز وحدهم هم المستعمرين !!!

هؤلاء هم الذين قادوا الشعب إلى الهاوية ... انحلت أخلاقهم ، لأنهم لا رصيد لهم من خلق ولا دين . ولا رصيد لهم كذلك من عراقة ولا تقاليد .

وكلمة «أرستقراط» التى تطلق عليهم لا تحمل من معناها العالى شيئاً . ليس فى مصر طبقة أرستقراط كطبقة اللوردات المحافظين فى انجلترا مثلا ... فأعرق أسرة من هؤلاء لا يزيد تاريخها فى الغنى على مائة عام ...

جاء محمد على الـكبير والشعب المصرى فقير . والأثرياء هم المماليك ومن يلوذون بالمماليك ... وجعل محمد على زمام الأطيان كلها فى يده ، فلم يبق ثرى لا فى الشعب ولا فى المماليك ... ثم أخذت الثروات تتسرب إلى أيدى طبقات خاصة على مدى السنين فى هذا الحيز القصير .

وفاز بنصيب الأسد على توالى الأجيال : أبناء الجوارى ، والماتيق ، والذين خدموا الاحتلال — والذين عرفوا كيف يدورون مع الريح . والقلة القليلة فى العصور المتأخرة هى التى كسبت ثروتها بالجهد وعرق الجبين .

تلك هى قصة الثراء فى مصر مختصرة . كلهم محدثو نعمة ، لم تتأصل فيهم تقاليد «الارستقراط» المعروفة فى بلاد العالم . ومن هنا لم يكن لهم رصيد من العراقة ... ووجدوا فى أيديهم النقود .

هؤلاء هم الذين يقودون الشعب اجتماعياً — مع الأسف الشديد ... هؤلاء هم الذين انحلوا فانحل معهم الشعب . ومن هنا جاءت كارثة الجيل ...

تفاهة ...

هذه الـكلمة المفردة تلخص طابع الجيل ...

لا يعيب الفتاة المصرية شىء كما يعيبها الجهل بماركات السيارات وأسماء الممثلين والممثلات ، والمطربين والمطربات وعناوين الأفلام والروايات ، وشىء آخر أهم : ألعاب القمار ، الـكونكان والبوكر والبكاراه ... لا يعيبها أن تجهل الجمال فى الطبيعة ، والجمال فى الفن ، والخبرة بالأسرة والعالم ...

والفتى كالفتاة ... أحاديثه أحاديثها . وطراوته طراوتها . وهى أنثى وهو يتأنث . لأن « أولاد الذوات » هكذا أطرياء لدن مخانيث! لقد شهدتهم هنا وفى كل مكان . الحركة الطرية ، والملابس الطرية ، والإيماءة الطرية . إنهم لا يكادون يتماسكون . ونفوسهم من الداخل كأجسامهم لا تماسك فيها ولا قوام لها كالهلاميات التى لم تتماسك بعد فى عالم التـكوين ...

وهؤلاء هم الذين يقلدهم الشعب المسكين ! !

وجيل تافه ...

ليس هناك عالم نفسى يعيش فيه بعض الوقت . فلا شىء إلا هذه الظواهر ، ولا شىء فى هذا العالم الظاهر إلا أتفه ما فيه ...

« شيكوكو » المنولوجست معبود الجمهور و « أنور وجدى » ممثله المرموق ... ومن فى مستواهما من المطربين والمطربات ... هذا! وحده يكفى لليأس من ذوق هذا الجيل ، ومن نفسيته وشخصيته لا أذن تحسن السماع ، ولا ذوق يفطن للفنون ... « كله عندهم صابون » والمهم أن يكون أكثر ميوعة ، وأشد رقاعة وكل جديد هو خير من القديم !

حضر « أنور وجدى » و « ليلى مراد » إلى « البلاج » فتزاحمت عليهما الجماهير ، حتى ضاقت أنفاسهما بالجماهير . ويبلغنى أن « عبد الوهاب » يضيق فى الحفلات الخاصة بالبنات اللواتى يترامين عليه فى مجون رقيع ... ذباب ... ذباب وصراصير ! ...

وجيل حائر ...

شهدت شابا وشابة زوجين ، يخرجان من البحر بلباس البحر ويجلسان على الـكازينو كذلك يتناولان الشاى والمرطبات ويدور الحديث بينهما وبين معارف لهما . فتذكر الشابة أن زوجها لا يلبس خاتم الزواج لأنه من الذهب ، والتختم بالذهب حرام فى الدين ! أى والله ، هكذا ... حرام! حرام أن يتختم بالذهب أما العرى القذر هكذا على الـكازينو ، فذلك متاع بالبحر لا شىء فيه .

ذلك مظهر من مظاهر التفكك النفسى ، كالجهاز المفكك ، كل جزء فيه يشتغل على هواه ، بلا ضابط ، ولا اتصال .

وعرفت سيدة تصلى وتصوم ... ثم ... تخرج من البحر بالمايوه ، وتجلس على الرمال بالمايوه حيث تتدسس النظرات المريضة إلى كل موضع فى هذا الجسد الـكشوف . فأما حين

تقف للصلاة فتفيض عليها من الجلباب والخمار ... إنها تتحجب هنا فقط، تتحجب على الله ! ! !

وذكرني هـذا بتلك المرأة، التي عادت من الحج، لتحيي حفلة راقصة تدور فيها الكؤوس ويكون بعدها ما يكون، احتفالا بهذا الحج المبرور ...

إنها من أولئك «الارستقراط» اللواتي يقلدهن الجيل ! والمجلات الداعرة ... إنها تنشر صور هؤلاء الارستقراط في مباذلهم، وتقول عن نسائهم المتبذلات إنهن شرفن مصر ! وتقلدهن بنات الشعب المسكين.

وهنا في «بلاج الشعب» في سيدي بشر رقم ١ شاهدت مصوراً لإحدى هذه المجلات الداعرة، يلتقط صورة لفتاة من بنات الشعب «بالمايوه». وكلفها أن تضطجع ضجعة خاصة فأطاعت. ويبدو أن شبئاً من حياء الأنوثة، أو حياء الإنسانية كان لا يزال يراودها فضمت فخذيها ... ولم يعجبه المنظر فقرب منها وقرب، ولمس بيده ركبتها لتفتح ما ضمت. فلما ترددت قليلا ... قال: «الله ! إنت فلاحة وإلا إيه»؟

وانحلت العقدة: فمن هي التي تريد أن تكون فلاحة؛ وهل تستحي إلا الفلاحة؟ والفلاحون ليسوا «أرستقراط» بشهادة الجميع !!!

و «تانت» و «انكل» و «دادى» ...

ميوعة أولاد الذوات ورقاعتهم المهينة، المهينة لأنها لا تعتز بقومية ولا لغة، المهينة لأنهـا تحتقر نفسها حـين تلجأ إلى اصطلاحات الآخرين ... هذه الميوعة مع الأسف أخذت طريقها إلى الشعب.

والمسألة أعمق من أنها مجرد ألفاظ. المسألة هي الشعور بالنفس أو عدم الشعور. المسألة أن لي كرامة في نفسي ولغتي وبلدي أم ليست لي هذه الكرامة. وأولاد الذوات لا كرامة لهم لأنهم لا نفوس لهم ولا وطن ولا عراقة ... فما بال الشعب يتزلق إلى التميع المهين؟

يابحر. إنك لتغضب. وإنك لتزمجر. وإنك لتجرف في ساعات غضبك وزمجرتك كل خبث في جوفك، فتقذف به إلى الشاطيء ... اعكس مرة أيها البحر، فاجرف إلى جوفك قذر الشاطيء بكل ما فيه !

سيد قطب

كلمة صريحة لله وللوطن:

دفاع عن الفضيلة ...

[تأييداً لمقالات الأستاذ سيد قطب]

(لأحد الكتاب)

هال بعض المصلحين منذ سنتين ما رأوا من فشوّ التبرج والاختلاط في دمشق البلد العربي المسلم، فقاموا يدافعون عن الفضيلة المغلوبة ويردّون الرذيلة الغالبة، وانقاد إليهم الناس، لأن الكثرة الكاثرة من أهل دمشق لا تزال متمسكة بدينها، ولا تزال نساؤها في الحجاب الساتر، ومشت الأمور في طريقها، وكادت تصل إلى غايتها، ودعاة الفجور ينظرون ويتحرقون ... لولا أن رفعت الغيرة على الأخلاق الإسلامية والسلائق العربية بعض العامة إلى الدخول على النساء في السينما وإخراجهن منها وترويعهن، وإلى التجوال في البلد ونصح كل متبرّجة ووعظها وزجرها ... وقد أنكر العلماء وعقلاء البلد ذلك عليهم فكفوا عنه وأقلموا، ولكن دعاة الفجور لم يرضهم أن تنتصر دمشق للفضيلة وأن تهدم عليهم عملهم على رفع الحجاب وإباحة الاختلاط، فاستغلوا عمل هؤلاء العوام وأعلنوا إنكاره وكبّروه وبالغوا في روايته، وذهبوا يقيمون الدنيا ويُبرقون البرقيات ويُرعدون بالخطب، وما أهون الأبراق والأرعاد، وما أسهل إثارة الشبان الفاسقين على الستر والحجاب، باسم (الحرية الشخصية) التي تمتع عيونهم بما وراء الحجاب من جمال، وتُنيلهم ما بعد حدود الفضيلة من لذائذ ... !

أيخرجون النساء من السينما؟ أيعرضون بالنصح للمتبرجات الكاشفات؟ يا للحدث الأكبر، يا للعدوان على الحرية الشخصية التي ضمنها الدستور ! أليست المرأة حرة ولو خرجت عارية؟ أليس الناس أحراراً ولو فسقوا وفجروا؟ أليس كل امرىء حراً ولو نقب مكانه في السفينة فأدخل إليها الماء فأغرقها وأهلها ؟ !

كذلك فهم الحرية هؤلاء الجاهلون ... أو كذلك أراد لهم هواهم، وشاءت لهم رغباتهم الجنسية وميولهم النفسية أن يفهموها،

ودنموا الصحفيين فلبثوا أياماً طوالا لا كلام لهم إلا فى الدفاع عن (الحرية ...) ، وهاجوا بعض النواب ، فجرب كل واحد منهم أن يتعلم الخطابة فى تقديسها ، ثم عمدوا إلى فئة من خطباء المساجد حاموا عن الفضيلة ، فساقوهم إلى المحاكم سوق المجرمين ، وأدخلوهم السجون ، وجرعوهم كؤوس المهانة ، حتى صار من يذكر السفور بسوء ، أو يدعو إلى الفضيلة والستر كمن يدعو إلى الخيانة العظمى ، وصار النساء إذا رأين شيخاً فى الطريق شتمنه وسخرن منه ، وتوارى أنصار الفضيلة من وجه هذه العاصفة الفاجرة الهوجاء ، وهم جمهرة أهل الشام وعلماؤهم وأفاضلهم وعقلاؤهم ، وحسب أولئك أن الظفر قد تم لهم ، وأن أهل الدين قد انكسروا كسرة لا تجبر ، فكشفوا القناع وانطلقوا يسرحون وحدهم فى الساحة ويمرحون ... وكانت النتيجة أن انحطم السدّ فطغى سيل الرذيلة وعم ، وامتد فى هاتين السنتين أضعاف ما امتد أيام حكم الفرنسيين الذين هم أفسق الناس ، وهذه حقيقة نثبتها بأسف وخجل ... وكانت النتيجة أن ازدادت جرائم التعدى على العفاف واستفحلت حتى رأت المحاكم من يعتدى على عفاف بنته وأخته ، ومن يفجُر بطفل رضيع ، وماذا يصنع هذا الوحش الذى أثارت (الحرية الشخصية) غرائزه فلم يجد إلا البنت والأخت أو الطفل الرضيع ؟ وكانت النتيجة أن دمشق التى تستر بالملاءة البنت من سنها العاشرة شهدت يوم الجلاء ، بنات فى السادسة عشرة وما فوقها يمشين فى العرض بادية أفخاذهن ، ترتج نهودهن فى صدورهن ، تكاد تأكلهن النظرات الفاسقة ... وشهدت بنتاً جميلة زينت بأبهى الحلل ، وألبست لباس عروس ، وركبت السيارة وسط الشباب — قالوا : إنها رمز الوحدة العربية ... ولم يدر الذين رمزوا هذا الرمز أن العروبة إنما هى فى تقديس الأعراض لا فى امتهانها ، ومشى الموكب أمام الناس وفيهم والد هذه البنت لا يستحيي ولا يخجل ، وأخرى قالوا أنها رمز سورية الأسيرة قد فكت قيودها ... وأمثال هذا الهذيان الذى لا معنى له إلا استغلال العيد الوطنى فى هدم أركان الفضيلة وتمزيق حجابها ... وأخذت صور هذا كله فنشرت فى الجرائد وعرضت فى السينمات ، ثم ازدادت جرأة الناس على نقض عرى الأخلاق حتى رأينا صور ممثلينا السياسيين مع نسائهم على (بلاج) الأسكندرية منشورة فى إحدى مجلات مصر التى لا تدع فرصة فيها تشهير بنا وفضح لنقائصنا إلا استغلتها ، ثم ازدادت الجرأة حتى صارت مجلات دمشق تنشر صور العرايا فيشتريها الشباب لهذه الصور ، لأنه ليس فيها ما تُشترى له ، ثم امتد الشر حتى رأينا وزارة المعارف تعمل من الطالبات كشافات يمشين فى الطرق بمثل لباس الجنديات فى الجيش الأميركى بعد أن كانت دمشق لا تحتمل أن ترى الكشافين الشباب بلباس يرتفع عن الركبتين ، وحتى رأيناها تقيم معرضاً لأدوات تحضير الدروس التى صنعها المعلمون ، فتترك مدارس البنين كلها ، ومنها الثانوية المركزية ببنائها الضخم وأبهائها ، وهى أصلح مكان للمعارض ، وهى التى أقيم فيها معرض دمشق الكبير سنة ١٩٣٦ ، وتختار مدرسة بنات فى طريق الصالحية ، ثم يفتتح المعرض مدير معارف دمشق ... بدعوة الرجال لمشاهدة فرقة من الكشافات يغنين على المسرح ويأتين بحركات رياضية تبدى للأعين الفاسقة المفتحة أكثر ما يخفى عادة من أجساد فتيات نواهد ... قد انتقين عمداً أو مصادفة من جميلات الطالبات ، ثم امتد الشر حتى رأينا محافظ دمشق يفتتح نادياً يكون من قانونه أن العضو يجيء مع زوجته أو ابنته (غير المتزوجة ...) ، وحتى شهدنا النفر الشيوعيين العزاب المستهترين الساكنين فى القهاوى الخبيثة والخمارات ، أصحاب (تلك) البرقية الوقحة المعروفة يسلمون أمر المعارف ، ويسلطون على الشبان والشابات ، فيبتدعون لهم من نظام المرشدات (وإنه لنظام الضالات المضلات) والاختلاط فى الحفلات ، فبعد أن كانت مدارس البنات لا يدخلها معلم ولا فراش إلا إن كان شيخاً كبيراً ، صار معلموها من الشباب العذاب التأنقين الحاسرين أصحاب الشعور المرجّلة والوجوه المحفوفة ، وصارت تقيم حفلات للرجال يمثل فيها البنات ويرقصن بالثياب القصيرة (الرقص الرياضى ...) ، ويدبكن الدبكة الوطنية ، ثم يخترعون شرّ اختراع ، وهو هذه الرحلات المدرسية التى يشترك فيها الجنسان ، وها هو ذا إعلان قرأته فى جريدة دمشقية تصدرها جمعية إسلامية عن رحلة إلى استامبول يشترك فيها الطلاب والطالبات والمعلمون والمعلمات إلى استامبول — يا أيها الناس — لا إلى بيروت ... وكان من البلاء أن هذه الجريدة نشرته ونسيت

أن تعلق عليه ، ونبين حكم الله فى هـذه الرحلات ، وحكم العقل والأخلاق ... ثم ينقلون دار المعلمات من مكانها القديم المستور إلى (ڤيلا)[1] جديدة فى شارع محدث فى ظاهر البلد ، مكشوفة من كل جهاتها ، لها طنف وشرفات دائرة بها ، وسرر الطالبات تظهر من الطريق ، فإذا نهضن من النوم رآهن (من تحت) من يمشى فى الشارع بثياب النام ، ثم يدفعون خريجات دور المعلمات فيعملن حفلة خيرية ، فلا يجدن لها مكاناً فى دمشق إلا مرقص العباسية ، ويطبعن فى البطاقة أنه سيغنى فيها (فلان) من فسقة المغنين ، وترقص (فلانة) الراقصة المحترفة رقصاً بلدياً !

ثم ... ثم ما ذا ؟ الله وحده الذى يعلم ما ذا يكون أيضاً ، وإلى أين يبلغ بنا المسير ...

وقد نزلت هذه الضربات على وجه الفضيلة متلاحقة متتابعة لا تصحو من واحدة حتى تحس بالأخرى ، وهم يريدون منا مع ذلك أن نسكت وألا نقول شيئاً ، لئلا نشوّه (زعموا) جمال العهد الوطنى

كلا . إن العهد الوطنى هو الذى تنتصر فيه الفضيلة ويسود الحق ويحفظ العفاف ... كلا ، ولا كرامة ، إنها أعراض بناتنا وأخواتنا ، ولو غير الأعراض لهاودّنا كم عليها ، ولكن لا هوادة فى العِرْض !

إنها حياة هذه الأمة : لا تحيا أمة بلا أخلاق ، أفإن قامت فئة من العامة بما لا نرضى عنه ، وانتهكت حرمة هذا الحرم الأقدس : السينما ، وتجاوزت على حريات الفاضلات المطهرات : النساء المتبرجات نسكت كلنا عن نصرة الفضيلة إلى يوم القيامة ؟

إن من الأمور ما يتفق عليه أبناء الملل كلها ، وما يلتقى فيه أتباع الأديان جميعاً كما يلتقى سالكو شوارع مختلفة فى ساحة من الساحات ، ومن ذلك الدعوة إلى العفاف ، إنها دعوة لا بد منها ، فإذا لم تريدوها عن الجمية الغراء والمشايخ ، فلتكن عن طريق البطرك أو الحاخام أو الوثنى الملحد ، المهم أن يجهر بها جاهر ونحن معه مؤيدون له ومحاربون لمن يحاربه ، ونحن نريد الجوهر لا المظهر

ثم ما هذه الحرية التى طبّلتم لها وزمرتم ، وهوّلتم وعظمتم ، وجعلتم الاعتداء عليها كفراً بدين الحضارة والديمقراطية ، أهى حرية المرأة أن تكشف ما تريد من جسمها متى أرادت وأين شاءت ؟ أهى حرية ناظر المدرسة فى أن يحوّل مدرسته إلى مرقص؟ أهى حرية الفسوق والعصيان ؟

أهذه هى الحرية المقدسة ؟

إنكم — أيها السادة — بين أمرين : إما أنكم تقولون ما لا تفهمون ، وإما أنكم تسترون بهذه الأسماء الحلوة أغراض نفوسكم ورغبات أجسادكم ؟ وإلا فخبرونى أى أمة فى الدنيا تصنع هذا الصنيع :

العرب ؟ إن العرب أغير الناس على الأعراض ، وإن كلمة العرض فى لسانهم لا يقابلها كلمة فى ألسنة الأمم تترجم بها !

المسلمون ؟ إن الإسلام أمر بغض البصر وستر العورة ، ولعن الناظر إليها والمنظور !

الفرنسيون ؟ إن الفرنسيين يكشفون أفخاذ الشباب فى الملعب فعلام تكشفونها أنتم فى سوق الحميدية وهو للبيع والشراء ، وفيه الرجال والنساء وهو كالموسكي فى مصر والشورجة فى بغداد ، ما كان قط ملعباً ولا ميدان كرة ، وإن الفرنسيين ينشئون بيوتاً للهو واللذة وبيوتاً للعلم ، وأنتم جعلتم بيوت العلم بيوت لذة ولهو ، وإن الفرنسيين كانوا يسترون سيقان الجند ، فلما استلم أنتم الجيش كشفتم عن أفخاذهم ...

الروس ؟ إن الروس فصلوا بين الجنسين فى المدارس لما رأوا بالتجربة أن الاختلاط لا يأتى بخير ، وأنتم تسعون الآن بكل طريق لجمع الجنسين فى المدارس

العفاريت ؟ الجن ؟ فمن إذن ؟ أنكون نحن بدعاً فى الأمم نأخذ من كل واحدة شر ما عندها ، ونريد أن نبدأ حياتنا الاستقلالية بهـذا الخليط من الشرور مركباً تركيباً مزجياً كحضرموت ... إنه والله طريق الموت الحاضر لا طريق الحياة !

لا . لم أرد أن أنحو فى هذا الحديث نحو الخطابيات ، ولم أنشئه لأخاطب به العواطف وحدها ، ولكن نحوت فيه نحو التدليل والتعليل ، وقررت حقائق بأدلتها ، وأنا أدعو إلى مناظرتى فيه كل مخالف فى رأسه عقل ، وفى يده قلم ، وفى فيه لسان ...

ولم أوجهه للمسلم وحده ، بل لكل من قال أنا عربى ، لا أخص مسلماً ولا مسيحياً ، لأن من صفات العربى التى تقوم عليها عروبته الشهامة والغيرة على الأعراض ، ومن ادعى العربية ولم تكن له على العرض غيره ، ولم يغضب لحرمة فهو كذاب دعى ليس بعربى

(١) الفيلا : عند الأمير شكيب الفنى وعند الأستاذ الزيات الـ

وسيقول ناس من القراء : هذا رجل معروف بالدعوة إلى الرجعية فلا تسمعوا له أنه يريد أن يعود بنا إلى الوراء ، ونحن نريد أن نتقدم

وهذا كلام لا يناقش ولا يرد عليه ، إنما يناقش كلام مؤيد بحجة ، إنما يدفع اعتراض قائم على منطق ، إنما يقرع الدليل بالدليل ، فهل في هذا الكلام حجة أو منطق أو دليل ؟

إنهم حفظوا كلمات فهم يرددونها لا يحاولون فهم معناها ، يقولون : رجعية ... وما الرجعية ؟ هي الرجوع إلى الماضي ، أي إلى أخلاقه وعاداته ، فما يمكن أن يرجع إلى زمان مضى ، فهل الرجوع إلى مثل أخلاق المسلمين الأولين نفع أو ضرر ؟ وهل يكون الداعي إلى تلك الأخلاق مصلحاً أو مفسداً ؟

هذه هي الرجعية !

هي رجوع إلى الدين ، أفترجع فرنسا إلى دينها ، أي إلى كاثوليكيتها ، ويظفر الحزب الديني فيها بأكثر مقاعد المجلس النيابي ، فلا ينكر عليها أحد ، ولا يتهمها بالتأخر ، ولا يصمها بالجمود ، ونطلب نحن العودة إلى ديننا الحق ، فيقول السفهاء : أنا متأخرون جامدون ؟ !

لا . هذا كثير ! هذا كفر بالمنطق ، وتعطيل للفكر ، وإلحاد في المدنية ... هذا شيء نستحي من الأمم أن يكون فينا من يقوله !

ونحن إذ ننتقد شيئاً نبين أضراره ، فبينوا أنتم منافعه ، حتى إذا وجدنا المنافع أكثر أخذنا به ، ولو حملنا معه شيئاً من الضرر ، ونحن نسلم أنه ليس في الدنيا خير محض ولا شر محض ، وإن الخمر والميسر فيهما إثم كبير ومنافع للناس، ولكن إثمهما أكبر من نفعهما ، فلذلك حرما

فتعالوا نتناظر !

إنه لا بد في كل مناظرة من مبادئ يتفق عليها الطرفان ليعودا إليها ، ويرتكزا عليها ، وما المنطق إلا رد الفروع إلى هذه الأصول ، فإذا كان المتناظران مختلفين في كل شيء ، يرى هذا أن العفاف نافع فيقول الآخر بل هو ضار ، ويدعي هذا أن اتباع الدين واجب فينكر الآخر هذه الدعوى ، ويرى هذا العمل على منع الفجور ، ويرى ذاك العمل على نشره ... فلا يمكن أن يكون بينهما كلام !

فلنتفق أولا على الأصول :

هل العفاف وقصر الاتصال الجسمي على المشروع منه خير أم شر ؟

هل قيام المرأة على تربية أولادها بنفسها وإخلاصها لزوجها وبيتها خير أم شر ؟

هل مراقبة الله وخوفه وتمسك كل امرىء بفضائل دينه خير أم شر ؟

هذه ثلاث مسائل أطلب الجواب عليها .

وأنه ليكون غروراً مني وازدراء للخصوم وللقراء ، إذا افترضت أنهم يرون هذه الأمور شراً ، وحاولت إقامة البراهين على أنها خير وأتعبت نفسي والقراء في إثبات هذا الأمر الذي أظنه ثابتاً عند العقلاء جميعاً ، وإني أؤجل هذا الاثبات إلى حين الحاجة إليه وأبنى المناظرة على هذه الأسس الثلاثة :

فتفضلوا قولوا ، هل هذا الذي نحن فيه يحفظ علينا عفافنا أم هو يضيعه علينا ؟ هل يعمر بيوتنا أم يقوضها على رؤوسنا ؟ هل يرضى ربنا أم يسخطه علينا ؟ هل يجعلنا أمة قوية أم هو يذهب بقوتنا ؟

وإذا سلمنا جدلا بأن من الخير مشاركة الطالبات الطلاب في أفراح الجلاء ، فهل يشترط في هذه المشاركة أن يكشفن سيقانهن وأفخاذهن ، وأن ينتخب لها الجميلات منهن لا النابغات ولا المجدات ولو كن قبيحات . وإذا لبسن الجوارب الساترة والثياب الطويلة أيبطل رواء العيد وتذهب بهجته ؟ أم أنتم تريدون النظر إلى أفخاذهن بحجة المشاركة في أعياد الجلاء ؟

وإذا حسن أن نقوى بالرياضة أجساد الطالبات ، فهل يشترط في هذه التقوية أن يختلطن بالرجال ؟ وإذا لزم نقل دار المعلمات إلى دارصحية فهل يشترط أن تكون مكشوفة من جهاتها الأربع ، وأن تكون (المحلات العمومية) أستر منها ؟

لا والله ، أحلفها يميناً غموساً وأضعها في عنق ... إنكم لا تريدون الصحة ولا الرياضة ولا المشاركة بالعيد إنما تريدون التلذذ بمرأى بناتنا باسم العيد والرياضة والصحة ، إنكم لصوص أعراض . ولكن ليس الحق عليكم ، الحق علينا نحن آباء الطالبات والطلاب ، فنحن عميان لا نبصر خرسان لا ننطق ، حمير لا نغار وإذا استمرت هذه الحال فليس أمامنا إلا اللعنة التي نزلت على بني إسرائيل ، على لسان داود وعيسى بن مريم .

اللهم لقد بلغت ، اللهم لقد أنكرت المنكر .

اللهم لا تنزل علينا لعنتك ، ولا تحلل بنا غضبك .

(دمشق) أحمد الكاتب

علوم البلاغة فى الجامعة

للأستاذ علي العماري

يحلو لبعض المعاصرين أن يسموا أنفسهم مجددين ، كل فيما يزاول من علم أو فن ، ولعل هذا الادعاء عارض نفسي يعرض لكثيرين فى كل عصر ولا سيما من يغرمون بالشهرة ، ويحبون أن يحمدوا بمالم يفعلوا .

وتجديد هؤلاء عجب من العجب ، فما هو إلا أن تعن فكرة فى رأس أحدهم حتى يطير بها ، ويكاد يجن فرحاً وغروراً ، ولو عرف قدر نفسه وتأنى قليلا لأدرك أتماخيل له ، وليس هو التجديد ، ولكنه قصور الفهم ، وضلال العقل ، وعمل الغرور ، وربما اكتفى أحدهم بدرس كتاب أو كتابين فى المادة التى يريد أن يجدد فيها . ثم بعد ذلك يشهد العالم على أن العلماء قصروا ، وأنهم لم يفهموا ، ولو أمعن الفهم ، ولو وسع دائرة اطلاعه لقد كان وجد فى كتب القوم ما يرد نزغته ، ويطفئ شهوته .

وقد منيت علوم البلاغة فى هذا العصر بدعاة التجديد ، وهى فى شديد الحاجة إلى من يجد أخلاقها ، ولكنها لا تظفر إلا بالدعاوى العريضة الكاذبة ، ونستطيع أن نقول إن التجديد فيها وقف بعد الإمام الجليل الشيخ عبد القاهر الجرجانى ، وإن ما بذل بعد ذلك ليس إلا محاولات بسيطة إن لمست بعض النواحى فى هذا الفن فأنها لم تخلص إلى اللباب ، وإن فى (دفاع عن البلاغة) للأستاذ الزيات ، وفى (مذكرات فى علوم البلاغة) لفضيلة الشيخ سليمان نوار ، وفى (التصوير الفنى فى القرآن) للأستاذ سيد قطب أقول إن فى هذه الكتب لوثبات تبشر بخير ، وهى بعد جديرة بالتقدير .

ويمكن أن ننظر فى محصول هذا العصر البلاغى ، فنجد بعض العلماء قنع بأن يجمع الأشتات ، ويؤلف المتفرقات ، ثم يدعى أنه فى البلاغة ألف ، وبعضهم يعمد إلى الورق الصقيل ، والطبع الأنيق ، ليقول إنه فى البلاغة جدد ، ولعل شر الثلاثة هؤلاء الذين يفترون على العلم ويكذبون على القدامى ، ويكثرون من ثلبهم وتنقصهم ليقال إنهم وحدهم الذين عرفوا وقد جهل الناس ، ووصلوا وقد تخاذل العلماء .

يهدمون ولا يبنون ، ولو أنهم هدموا متبصرين فاهمين لكان فيهم أمل ، ولكنهم يضربون معاولهم وهم مغمضو الجفون .

بين يدى الآن مذكرات فى علم المعانى أملاها الأستاذ الشيخ (أمين الخولى) على طلبته فى الجامعة المصرية ، وفيها كثير مما يستحق أن يناقش ، ولكنى رأيت أن يشركنى القارئ فى هذا الأسلوب الذى يدرس به هؤلاء الأعلام ! ! .

وإنما يعنينى هذا الأمر لأن البلاغة فن من الفنون قبل أن تكون علما من العلوم ، وما دامت فنا فهى تتطلب ما تتطلبه الفنون من حسن العرض وجمال التنسيق وخلق الذوق الأدبى فى المتعلمين ، ولهذا كانت حاجتها إلى الأكثار من النماذج العربية الصحيحة الفصيحة . ومن العرض المتأنق الجميل الحاجة القصوى ، ولكن ماذا تقول حين نرى أستاذ البلاغة فى الجامعة المصرية يعرض هذا الفن ، كما يعرض واعظ العامة موعظته فى أسلوب عامى ركيك ، ولنقتصر الآن على عرضه لثلاث آيات من كتاب الله الكريم :

١ — (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) يشرحها الأستاذ هكذا « وبعبارة أخرى يريد الله أن يقول : هو محمد ده بطلع إيه ؟ محمد هذا والرسل من قبله مجرد (سعاة بوسته) هو مرسال زى المراسيل اللى قبله ... بيجى ويروح ويموت ويتقتل ... الخ فإذا حصل شىء من هذا يبقى خلاص انقطع ما بينكم وبين الله ؟ هو ينفعهم لا على نكوصهم عن محمد ، بل لنكوصهم من أجل موت محمد . ولذا يقول : أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ... الخ ... انتهى بنصه وفصه ! ! .

صدقنى — أيها القارئ — أن هذه عباراته . فهل هذا هو التجديد ؟ هذا كلام يمكن أن نتصور صدوره من واعظ يلقى عظته على جماعة من (البرابرة) فيضطر إلى أن ينحدر هذا

الانحدار ، على أنى واثق من أن مثل هـذا الواعظ يعف لسانه وذوقه عن هذا الهذيان !

ولكن ما الحيلة والرجل من كبار المجددين فى علوم البلاغة ، أليس التجديد هو مخالفة الأقدمين ؟ أليس التجديد هو البساطة والحذلقة ، وما المانع من أن يلقى على طلبة الجامعة أن محمدا وعيسى وموسى وإبراهيم وجميع الرسل ليسو إلا « سعاة بوسته » ؟ وهل فى ألسنة البلاغيين أصدق وأبسط وأحسن من هذا التعبير الجميل الظريف الخفيف ؟ !

٢ — قال الله تعالى « وما أنت بمسمع من فى القبور إن أنت إلا نذير » . وقال الشيخ نفعنا الله به وبعلمه آمين : « انت مش حتسمع اللى فى القبور . والحقيقة أنه هو مش قدام أموات ، وإنما قدام ناس ألواح وبهايم ، والقرآن بيقول له : إنك حريص قوى على هدايتهم ، والأحسن انك ماتحرصش كثير على هذه الهداية . قال له ذلك لأنه شاف إنه كاد لفرط عنايته بأن يهتـدى هؤلاء القوم أن يخرج عن حده فينسى أن مهمته هى مجرد التبليغ . هو عمال يحرق فى دمه مع الناس دول ، ووفاؤه لمهمته هو اللى يحمله على الإسراف فى الإلحاح ويهز فى هذه الألواح ، ويحاول أن يبعث فيهم نفحة من الهداية بأى ثمن . فقال له الله : يا أخى انت حارق نفسك ليه ... انت ماتنتش حاجة أبداً إلا نذير تنذر من يُنذَر ، وتخوف من يخاف ، وتعلم من يتعلم ، وتنبه من يتنبه ، ودول أموات ... فالأحسن لك انك تريح نفسك » .

والله ماأدرى ماذا أقول ؟ وإنى لخائف أن أقابل هذا الكلام بما هو به جدير فيستثقل القراء ويستبردون كلماتى . ولو أن فى الجامعة قوما يحاسبون المدرس لاتهموا هذا الأستاذ بتهم أقلها إفساد ذوق التلاميذ .

على أن شرحه بعد ركاكته وتهافته — ليس موافقاً كل الموافقة لما تنطق به الآية ، وإدراك ذلك سهل ميسور .

٣ — وقال عز وجل « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله » . ويقول الشيخ : « الحوار فى هذه الآيات بين عيسى وبين الله حوار خيالى محض صور وقوعه بعد أن انتقل عيسى من هذا العالم الذى نحن فيه بدليل « فلما توفيتنى » وكأن الله يقول لهم « أنتم بتقولوا عيسى ده إله ، وإنه هو الذى أمركم أنكم تعبدوه ... نجيبه ؟ نسحبه ونسأله ؟ ثم صور بعد ذلك أنه لو قام وبعث إلى الحياة لدار بينه وبين الله هذا الحوار : الناس الباردين دول ... هل أنت قلت لهم ياعيسى إنك إله ؟ قول لهم ؟ قل لهم يا أخى » !

بمثل هذه الأساليب البارعة الفاتنة يلقى مدرس البلاغة فى جامعة فؤاد الأول ، وسيد المجددين كما يدعى ... يلقى دروسه !

ومن الانصاف أن نذكر أن الأستاذ الفاضل أدرك أخيراً ما فى هذه الأساليب من ضعف وسخافة ، فأشار على تلاميذه أن يمروا بالقلم على بعضها ، ولكنه بعد قلم خفيف إن مر على دفاترهم ، فلن يمر على أفكارهم وأذهانهم ...

على العمارى

مدرس البلاغة بمعهد القاهرة

في التربية الحديثة :

التاريخ والقومية ...

للأستاذ إبراهيم على طرخان

في الواقع يصعب تحديد معنى كلمة «تاريخ» ، بل فهمها على الوجه الصحيح ، فليس هناك تعريف نهائي مطلق ، لسبب واحد فقط : وهو أن مجرد إدراك التاريخ على حقيقته جزء من التاريخ؛ لذا كان التعريف خاضعاً لقانون التطور ، ومن هنا كان لكل عصر ، بل لكل أمة تعريف خاص ، أطلق على ضوء فلسفة العصر وأهداف الأمة ومثلها العليا .

وليست مهمة المدرس في ابتداع تعريف جديد ، أو حتى التسليم بتعاريف أخرى — إن كان للتعاريف أهمية في المراحل الأولى من التعليم — ما لم يحللها ويتفهمها ويقتنع بها فيما بينه وبين نفسه أولا ؛ غير أن الأجدر به أن يوجه همته ونشاطه نحو تفسير ما غمض في حياتنا المعاصرة ، وذلك على ضوء التاريخ ، فالاتجاه الحديث في تعليم التاريخ يقتضي هذا النهج لأمرين :

١ — إن الحاضر هو منبع الأسئلة ومثير الاستفهامات ومحك التفكير ، بل هو مغر كل الأغراء للاطفال فضلا عن الكبار ، وهو معقد كل التعقيد .

٢ — هنالك ماض لا يزال حياً في حاضرنا يؤثر فيه ولم تنقطع صلته به ، كمظاهر الحضارة والتقاليد وغيرها ، ويعتبر الحاضر امتداداً له .

لهذا كان الحاضر متشعب النواحي مختلف الاتجاهات ، وهي سنة كل مجتمع في بنائه وقيامه على الاختلاف لا على التشابه ، ولفهمه على أصوله لا بد من التاريخ ، ولدى الأطفال استعداد فطرى تاريخي[١] . هذا يوضح أن من الممكن فهم التاريخ على حقيقته ؛ يقول الدكتور Barker : « قد يجعلنا التاريخ متفرجين على الحاضر وما هذا الوجود المعاصر إلا حلقة من حلقات ماضينا التاريخي ، فالتاريخ إذن هو إدراك النفس الشاعرة لكنهها في مظهرها الحديث »[١] ؛ وما الإنسان المعاصر نفسه إلا إحدى مظاهر أو نتيجة ذلك الماضي البعيد : وحينما يستطيع الإنسان تفسير حياته بالتاريخ ، أمكننا أن نقول : إن الإحساس التاريخي قد تكون لديه ونما فيه .[٢]

وإذا نحن تصورنا التاريخ على أنه مادة أو كتل من المعلومات Bodies of Knowledge ، كنا مخطئين ، فما هذا الاعتبار ، بمعنى آخر ، ما تقسيم المعرفة الإنسانية إلى مواد إلا تقسيما مصطنعاً لا مقابل له في عالم الحقيقة والواقع[٣] ، إذن علينا التحلل من هذا الاعتبار إلى حد كبير ، بل من دكتاتورية الكتاب المقرر ، فليس هو الفيصل في معرفة التاريخ أو آخر معرفة له ؛ وربما — إن كان صالحاً — اعتبر مجرد مقدمة وتمهيد لدراسة التاريخ على حقيقته[٤] .

قد يميل البعض إلى اعتبار التاريخ رواية تمثيلية ، منقطعة كل الانقطاع عن حياتنا الحاضرة ، بدعوى أنه يمت إلى عالم آخر غير عالمنا . هو عالم الأموات ، وقد مات بموتهم ، فلا أهمية حقيقية في النبش عن أحوالهم ، ولا بأس من إيراد دعوى من هذا القبيل قال بها أحد علماء العصور الوسطى بصدد حديثه عن المؤرخين : «وهم على شفا جرف هار ، لأنهم يتسلطون على أعراض الناس »[٥] ويشترط بعد ذلك شروطا في المؤرخ لا محل لها هنا ، والزعم بأنه قد مات بموتهم والحديث فيهم أو عنهم إنما من باب القصص ليس غير لا يتمشى مع المنطق ولا الحقيقة ، تلك الحقيقة التي تطالعنا كل يوم في كل مظهر من مظاهر حياتنا المعاصرة : في المباني ، في الزى ، في المواصلات ، في التقدم ، في القنبلة الذرية في غيرها ... ؛ كل هذا إنتاج تسلسل طويل ، وكل مرحلة لابد لها من بداية ، وما دامت الحياة كائنة ، فلم تدن النهاية بعد ؛ هذا يوضح لنا ارتباط الماضي بالحاضر ووجوده فيه وامتداد هذا كله إلى المستقبل . وربما أراد البعض بالتاريخ في هذا المعنى الروائي أو الدرامي ، أننا متفرجون ، وهذا خطأ إن وقف المعلم والتلميذ

(١) ينظر بحث الدكتور القوصي : « سيكلوجية المواد الاجتماعية » بكتاب : مؤتمر تدريس المواد الاجتماعية ص ٢١ — ٣٧

(١) T. clarke : Foundations of Teaching History, Ch2, PP 34 etc

(٢) المصدر السابق ص ١٥١ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق ص ٢٤ .

(٤) Bourne H. E. The Teaching of history and Civics In the Elementary and Secondary Schools, PP. 51 etc

(٥) السبكى (تاج الدين بن عبد الوهاب) : « معيد النعم ومبيد النقم » ص ٩٤ .

موقف المتفرج ، فالمهمة الحقيقية للمعلم : إلى أى حد يشعر التلميذ أنه ممثل وليس متفرجاً ؟ ! كثير من الشخصيات تبدو فى مخيلته ، قد لا تختلف عنه إلا فى الشكل أو العرض لا الجوهر ؛ فأى نصيب أو سهم يكون له فيما يقومون به ؟ فيم يختلفون عنه كما قال قيصر أو الثورة الفرنسية ؟ ؟ إنه يترك مسرح درس التاريخ ، وتغرب شخصيات الرواية عن خاطره ، ومن ثم يتجه فى طريق ، بينما اتجهت الدراما الإنسانية العامة إلى نحو آخر .

وقد غالى دعاة هذه الناحية إلى حد تفضيل بعض الروايات المشهورة على التاريخ ودراسته من حيث الأثر وما تتركه فى النفس ومثلوا بروايات « شكسبير » نحو : Hamlet و macbeth والرد واضح ، فإذا اعتقد المشاهد أو الدارس ، أن ما يرى أو ما يقرأ أو ما يسمع قد وقع فعلا وشمل أناسا مثله لا يختلفون عنه كثيراً ربما كان هذا أبعد فى تأثيره وأعمق فى إيحائه [(١)] ويستوى فى هذا الكبار والصغار إلى حد ما ، والواقع ليس التلميذ الصغير مستعدا لإدراك حقيقة التاريخ كشىء يشمله مباشرة ، كمجرى أو أسلوب عام للحياة ، هو نفسه عليه أن يأخذ بنصيب فى هذا الأسلوب : إن إعلاء أو استمرارا أو تعديلا ، لأنه يبدأ حياته حيث انتهى أسلافه ؛ وإذا حاولنا النقص والهدم لاحتجنا إلى القرون الطويلة التى قضاها أسلافنا فى التطور فى مختلف فروع الحياة ، حتى وصلوا إلى المرحلة التى نحن عليها ، والتراث الذى خلفوه لنا ... [(٢)]

على هذا كان تدريس التاريخ بل فهمه على الوجه الصحيح غير ممكن إلا للراشدين . ففهمه يحتاج إلى خبرة ، وخبرة الطفل لا تزال قاصرة ، والخبرة أساس فى تكوين « فلسفة الشخص » أو نظرته إلى الحياة ، وهذه الفلسفة أشعر حقيقة أنها تنقصنا نحن الكبار ، فإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لمعظم الراشدين فكيف تكون بالنسبة للطفل ! ؟

ومع كل هذا لا بد من تدريس معلومات للطفل فى مراحله الأولى تحت عنوان « تاريخ » . ما هى هذه المعلومات ؟ وكيف تدرس ! مبحث آخر

المهم الآن ، هو أن التسليم بهذه الحقيقة يزيل من أمامنا

(١) F. C., B 28

(٢) الدكتور حسن عثمان (منهج البحث التاريخى) مقالات نشرها بمجلة الرسالة تحت عنوان « كيف يكتب التاريخ » صيف سنة ١٩٤١م

الكثير من فوضى العهد القديم والطرق التقليدية التى من أبرز خصائصها فى رأى فيلسوف التربية الحديثة « ديوى » ثلاث :

١ — الالقاء المطلق أو الإيجابية المطلقة من جانب المدرس .

٢ — الاستماع المطلق أو السلبية المطلقة من جانب التلميذ وعدم احترام فاعليته وذاتيته .

٣ — صب المعلومات دون نظر إلى قيمتها فى نظر التلميذ[(١)]

فيحفظ التلميذ شيئا من الأحداث والألفاظ ، لا دلالة لها فى نفسه بالمرة ، ثم نعتقد بعد هذا خطأ أننا نعرف تاريخا أو نعلم تاريخاً ، لا لشىء إلا لأننا قرأنا وحفظنا الكتاب المقرر ، وأساس هذه الفوضى وهذا الإفلاس فى النتائج من (حيث تكوين المصرى المثقف المتعلم) المستفيد من التاريخ الحقيق ، هو الخلط بين التاريخ وكتاب التاريخ ، وهذا خلط طبيعى فى مثل هذا الموضوع ، ومما يزيد فى صعوبة تدريس التاريخ الحقيق للطفل عدم إمكان تطبيق الطريقة العلمية أو التجريب فى تدريس التاريخ ولا أسمى استخلاص الحقائق من الوثائق طريقة علمية لتدريس التاريخ ، فهذا عمل المؤرخ المختص ووفق شروط كثيرة جداً ودقيقة لا تتأتى للمتعلم الناشىء — إن أردنا إخراج مؤرخين — ويمكن تلخيص هذه الشروط فيما يندرج تحت هذين الأساسين :

١ — معيار الصدق والحيدة العلمية التى يجب أن نتأكد منها مقدما بالنسبة لمؤلف الوثيقة .

٢ الدقة والوضوح الذى يجب توفره فى الوثيقة[(٢)] .

هل يمكن أن ألخص ما سبق فى أن التاريخ هو طريقة للحياة ، هو مجرى الحياة المتدفق ، هو مدى شعور المعاصر الدارس بنصيبه فى هذا المجرى . وما ينبغى عليه كمصرى يعيش فى القرن العشرين ؛ بمعنى آخر : إن إجابة السؤال الأول تعطينا فلسفة التاريخ . »[(٣)]

ما الذى نعنيه من تدريس التاريخ ؟ هذا مبحث المقال القادم إن شاء الله .

إبراهيم على طرخان

(١) Dewey : School and Society : Ch. 2.: The school and the life of the child PP 31—56

(٢) Keatinge: Studies in the teaching of History Ch 2: The Scientific method in teaching Hist. and school problems P.P.29—32.

ينظر أيضاً : الدكتور زياده : صناعة التاريخ فى مقالات بمجلة الثقافة

(٣) ينظر بحث : شفيق غربال بك : « التاريخ والمدرسة » فى كتاب (مؤتمر تدريس المواد الاجتماعية) (ص ٦١ — ٦٥)

من عيون الأدب الغربي :

رحلات تشيلد هارولد لبيرون

للأستاذ بولس سلامة

— ٣ —

تمهيد :

استيقظ بيرون ذات صباح فاذا هو شاعر مشهور . كان ذلك غداة نشره المقطوعتين الأوليين من ديوانه « رحلات تشيلد هارولد » وفي هذه الأشعار وصف بيرون رحلته الأولى في أوربا حيث طاف بأسبانيا وروما واليونان فوصف المدائن البالية ورثى الدنيات الخالية وحنّ وأنّ وبكى واستبكى ، ولم يكن في كل ما كتب إلا واصفاً وناعياً نفسه المحطمة المنكوبة التي لم تحب الناس ولم يحبها الناس . نبذهم ونبذوه فراح يلتمس في وحدة البحر وحطام المدنيات البائدة عزاء لنفسه المحطمة الوحيدة . وفي المقطوعات التالية ترى وتسمع بيرون يودع بلاده ويرثي مجد اليونان ويصف البحر الواسع العميق .

الوداع :

وداعاً وداعاً يا شط بلادي ؛ أيها الشط المتواري وراء خضاره . بين ولولة الرياح وعجيج الأمواج . وأنت أيتها الشمس المائلة للغروب لك كما للوطن أقول وداعاً .

* * *

ولكن سوف يتنفس الفجر ، وتشرق الشمس من جديد على التلال والوهاد إلا أرض بلادي ؛ فقد غيبت فلا تعود . قصري أقفرت عرصاته ، وموقدي خبت فيه النار ، واعشوشب المكان من حوله . أما كلبي فظل وحيداً ينبح عند الباب .

* * *

والآن غدوت وحيداً في العالم ؛ فوق هذا الخضم الواسع العميق ، ولكن فيم حنيني إلى الناس ، وليس في الناس من حان علي ، حتى كلبي سوف يطعمه الغريب . فاذا ماعدت نبحني كالغريب . أيتها السفين الأمين : شقي طريقك في اليم كما تشائين ، وأنى مرساتك في أي أرض . فلست أبالي وقد هجرت وطني أي أرض تقصدين ، وأنت أيتها الأمواج المتلاطمة مرحى مرحى فان غبت عن ناظري . فلتتبدين الصحارى والوهاد . وداعاً وداعاً يا أرض المهاد .

البحر :

أيها العباب الواسع العميق . تشق آلاف الأساطيل مياهك بلا نهاية ، والإنسان الذي يملأ الأرض ضجيجاً وذعراً يقف على شطك حاسراً ذليلا . فان تجاوز الشط ابتلعته أمواجك ، وغاب في قرارك بلا قبر ولا أكفان ولا مشيعين واحتواه نسيان عميق .

* * *

على سواحلك قامت الامبراطوريات ثم عفت ، وازدهرت المدنيات ثم اختفت . أين أشور ويونان وروما . داعبت أمواجك شطآنها وهي حرة تحكم . ولا تزال تداعبها وهي مستعبدة تُحكم . والزمن الذي يغير كل شيء لم يغيرك ، ولم تعلُ جبينك الغضون . فأنت الآن كما كنت في فجر الخليقة فتى القلب غض الإهاب .

بلاد اليونان :

يا بلاد يونان الجميلة : أيها الأثر الباقي لمجد خلا . نبيلة أنت في شقائك . خالدة أنتِ في فنائك ؛ من يقود أبناءك المشردين ؛ الذين طال مكوثهم في الأغلال . أين أولئك الأمجاد الذين وقفوا والموت في مضيق ترموبليه . وقفوا كالسد أمام القاهر العادي . ليتهم يعودون إليك الآن . فينفخون فيك من بطولتهم الخالدة ، وينقلون أبناءك للحياة . أيها الراسفون في الأغلال : ليتكم تعلمون ، إن الذين يتطلعون إلى الحرب عليهم أن يحطموا أغلالهم بأيديهم ، وأن يعتمدوا في كسبها على سواعدهم لا على سواعد الآخرين فرنسيساً كانوا أو مسكوف . دعوا عنكم هذه الأوهام . فقد يعاونكم هؤلاء على توهين خصمكم ، ولكن حريتكم في يدكم . يا أشباح الذل كافحوا عدوكم وانتصروا . أي بلاد يونان تغيرت السادة وبقيت شقية ، وزالت عنك السيادة ولم تزل في كأس الذل بقية .

الخرطوم — سودان) بولس سلامة

الأدب فى سير أعلامه :

ملتن ...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والجبال . .]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٢٤ —

أربع سنوات بغير حرب :

نشر ملتن كما أسلفنا كتيبه الأخيرين فى دفاعه عن حق إباحة الطلاق بعد كتيبه الذى ناضل فيه عن حرية الرأى ، ثم سكت منذ شهر مارس سنة ١٦٤٥ ، فلم يكتب مجادلا أو مخاصماً إلا ما ندر من الشعر حتى سنة ١٦٤٩ ، فكانت هذه السنوات الأربع فترة سكون أعقبها وثبة قوية فى ميدان آخر هو ميدان السياسة

وقبل أن ننظر فيما كان من أمره فى هذه السنوات الأربع نشير إلى مقال أثبت فيه رأيه فى التعليم ، وقد نشره قبل ذلك ببضعة أشهر ، أى فى صيف سنة ١٦٤٤

كتب ملتن هذا المقال الذى لا يزيد عن ثمان صفحات بإيحاء صديق له يدعى « صموئيل هارتلب » ، وهو ينتمى فى أصله إلى دنزج ، وقد أقام فى لندن منذ سنة ١٦٢٨ ، وكان مهتماً بفلسفة التعليم وتجديد أسلوبه على نحو قريب مما دعا إليه بيكون فى انجلترة وكومنيس فى أوربا من قبل ...

وينصب رأى ملتن على التلاميذ من سن الثانية عشرة إلى الحادية والعشرين ، وتلمح فى المقال على صغره خصائص أسلوبه ونوازع وجدانه ، ففيه مثلا يحسه المرء فى كتيباته من السمو بالغرض فى كل ما ينهض له ، وفيه النظرات الحرة التى لا تتقيد بقيد ، والتى تنفر من كل متواضع متعارف ، وفيه كذلك الاعتزاز بالرأى والتحمس له والاستناد إلى مصادره هو وإنكار ما عداها !

وعنده أن التلاميذ فى هذه السن يجب أن يفرغوا فى وقت قصير من قواعد اللاتينية والإغريقية ، وأن يطالعوا بعد ذلك بعض الكتب الإغريقية السهلة ؛ ويجب أن يتخلل هذه الفترة من دراستهم محاضرات تذكى فى أنفسهم حب العلم والفضيلة ، ومتى اكتمل شعورهم بأداء الواجب « صعّدوا فى سفح المعرفة غير معجلين ولا وانين » ؛ وعليهم أن يتقنوا دراسة الكتب الإغريقية واللاتينية فى كل فروع العلم ، ولتخصص ساعة للسان العبرى ، ولكيلا يسأموا ينبغى أن يعلموا المصارعة والملاكمة وأضرابهما من فنون الرياضة ، وأن يقلدوا بعض المعارك ليفهموا أساليب القتال ، وأن يسمعوا الموسيقى لتنعشهم وتهذب نفوسهم ...

وواضح من منهاجه هذا أنه يقيس على نفسه فيقترح هذا العبء الثقيل للتلاميذ ، لأنه نهض بما هو أثقل منه فى غير عناء ، وكأنما تأبى عليه شدة ذهابه بنفسه إلا أن يجعل من كل ما يعمل وما يرى من رأى مثالا ينبغى أن يحتذيه الغير... وهو فى منهاجه كذلك يخرج على البيوريتانز ، إذ يوجب تعلم الاغريقية واللاتينية وشتى فنون المعرفة ...

وألقى ملتن قلمه منذ أوائل سنة ١٦٤٥ ، وظل يترقب فى هدوء أنباء الحرب الأهلية التى مالت معركة نسبى بكفتها نحو أعداء الملك فى يونيو من تلك السنة ، وكانت آثار الجهد بادية عليه لفرط ما جادل وناضل منذ أن ألقى بقيثارته على رغمه وشرع قلمه فى سنة ١٦٤١ ليبدأ حربه على القساوسة ؛ ولكنه استشعر بعض العزاء فى عودة زوجته إليه بعد معركة نسبى بقليل ...

وكان منزله الجديد فى حى باربيكان الذى استأجره بعد عودة زوجته يكاد على سعته يضيق بمن فيه ، لذلك كانت المعيشة فيه ينقصها الراحة والهدوء ، الأمر الذى ضاق به صدره أحياناً ، ففيه لا يزال يتلقى العلم على ملتن عدد من أبناء أصحابه لا تخفت أصواتهم فى أكثر ساعات النهار ، وفيه يقيم ابنا أخته ، ويقيم معه كذلك فى منزله أبوه وهو اليوم شيخ كبير ، كما حضر ليقيم معه مستر پوول وزوجته ونفر من أسرتهما سنة ١٦٤٦ بعد أن سقطت أكسفورد وفورست هل فى يد أنصار البرلمان . وجاء ليعيش

أخوه كرستوفر على مقربة منه ، وكان لا ينفك يضايق ملتن بعسره وبمشكلاته القضائية التي جاءت في وقت واحد مع مثيلاتها من مشكلات آل پوول ...

ولم يعدم الأدب نصيراً في تلك السنين العاصفة ، وكان هذا النصير هو ناشر يدعى موزلي على جانب ملحوظ من الثقافة ، وكان مما نشره موزلي في خريف سنة ١٦٤٥ كتاب كتب على غلافه : « قصائد مستر جون ملتن الانجليزية واللاتينية ، نظمها في أوقات متفرقة »

وكان هذا الكتاب ينتظم شعر ملتن كله من أول عهده بالقريض حتى ذلك اليوم ؛ وفي الصفحة الأولى أثبت ملتن عبارة مقتبسة من فرجيل مؤداها أن للشعر هواه ومتجهه لا للكتيبات ، وأنه لا يحب أن يعرف بشيء إلا بالشعر ، وأثبت كذلك في تصدير ديوانه ما تسنى لشعره من تقريظ الأجانب إياه وثنائهم على صاحبه!

ولا ريب أن خصومه من المتزمتين قد وقعوا كما صورت لهم عقولهم ونوازعهم على أكثر من غميزة في هذا الشعر الذي يزخر بصور الجمال والفتنة وخرافات الاغريق والرومان ، وفي تلك الأغنيات التي لحنها على أوتاره الملحن (لو) الذي ينتمي إلى حزب الملك ، وأنهم لذلك تنامزوا فيما بينهم ونعتوا باللاتينية أو مايقرب منها ذلك الشاعر ، وسخروا من ذلك الذي طالب بإباحة الطلاق، وثار على الرقابة وخاصم البرسبتيريز ، فما يطلب في رأيهم إلا الأباحية وإن زعم أنه يدافع عن الحرية ...

ولكن كثيراً من المثقفين تقبلوه بقبول حسن ، وأشربوا في قلوبهم محبته ، ومن هؤلاء صديق له مرموق المكانة في الأدب والثقافة هو الدكتور روس الذي كتب إليه يسأله نسخة ثانية من كتابه ، فأرسلها إليه الشاعر مشفوعة بمقطوعة يثني فيها على هذا الصديق ويتواضع على غير عادته إذ يشير إلى مبلغه من الشعر في صدر شبابه ، ويحن إلى تلك الأيام التي أقبل فيها على النظم أول ما أقبل حين كان حدثا لا تكاد تبلغ الأرض قدماه إذ يكتب ، ويأسف إذ يرى اليوم ربات الشعر تروعها الحرب القاعة وتطيرها ...

والحق أن للمرء عذره بادىء الرأي إذ أحس التناقض بين أن يكون ملتن بيوريتانياً ، وأن ينطق لسانه بهذا الشعر ، ويفيض قلبه بهذا الاحساس الناس بالحياة ومسراتها ولذاذاتها وكل جميل فيها ، ولكنه لا يكاد يتذكر مولده بين ربيع الأليزا بيثين وصيف البيوريتانز حتى يدرك ما ذكرناه عنه من قبل أنه كالطائر المتخلف الذي يغني في هجير الصيف ألحان الربيع .

ولقد أشار مكولي إلى هذه الناحية من حياة ملتن فجاء بوصف بديع يحملنا لفرط قوته على أن نثبته هنا غير منقوص .

قال بعد أن تحدث عن الملكيين والبيوريتانز « لم يك ملتن منتمياً بمعنى الانتماء الحق إلى طائفة مما ذكرنا ، فلم يك بيوريتانيا ولا من ذوي التفكير المطلق من قيود الدين ولا ملكياً ، فقد اجتمعت في أخلاقه وائتلفت من صفات كل طائفة أكثرها نبلا ، فمن البرلمان والبلاط ، ومن مجتمع المنشقين على الكنيسة والغناء القوطي للكتدرائية[1] ، ومن حلقات البيوريتانز الكئيبة الموحشة كالقبور ومباهج عيد الميلاد عند ذوي الجود من الفرسان ، من كل أولئك انتقت طبيعته واجتذبت لنفسها كل ما كان عليا صالحا بينما نبذت كل ما من شأنه أن يشوه تلك العناصر الخلقية من الخلال السافلة البغيضة ... فعاش كالبيوريتانز عيشة من يحسى أبداً أنه تحت عين الباري الأعلى[2] ، وكان مثلهم لا ينقطع تفكيره في المهيمن العدل ، وفي الجزاء السرمدي ؛ ومن ثم فقد أخذ عنهم احتقارهم للعلل الظاهرية ، وقوة بأسهم وطمأنينتهم وعزمهم الذي لا يلين ؛ ولكن أعظم الناس شكا في الدين وأكثرهم استهزاء به لم يكن أكثر منه انطلاقا من عدوى أوهامهم الجامحة ، ومن عاداتهم الوحشية ورطاناتهم المضحكة ، وازدرائهم العلوم ومعاداتهم متع الحياة ؛ ولئن كان يكره الطغيان أشد الكره فانه كان على الرغم من ذلك يتصف بتلك الصفات الغالية القيمة التي يتحلى بها من يكتسبها ، والتي كادت تكون وقفا على أنصار الطاغية[3] فلم يك في الناس من هو أكثر منه إحساساً بقيمة الأدب ، ولا أرق

(١) يقصد مكولي البروتستنت ومن تفرع منهم من الطوائف ، والكاثوليك

(٢) هذه العبارة مقتبسة من مقطوعة ملتن التي جعل عنوانها « عند ما بلغت سن الثالثة والعشرين ».

(٣) يقصد الفرسان أنصار الملك

منه استساغة لكل متعة مهذبة ، ولا أكثر منه شبهاً بسجايا الفروسية فيما يتصل بالشرف والحب ، ولو أنه كان ديموقراطياً في آرائه إلا أن أذواقه وصلاته كانت أكثر مشاكلة للملكية والارستقراطية ؛ ولقد كانت تحيط به كافة المؤثرات التي أضلت ذوي الأناقة والشجاعة من الفرسان ، ولكنه لم يك عبداً لتلك المؤثرات بل كان سيدها المسيطر فكان كبطل[1] هوميروس الذي استمتع بلذاذات السحر جميعاً ولكنه لم يعتقله السحر ، فقد أصغى إلى أنشودة « السيرينز » ولكنه اتخذ سبيله في البحر بقربهن فلم تمسه منهن غواية تجنح به إلى شاطئهن المخوف . وشرب من كأس سَيْرِس[2] ولكنه كان يستحوذ على ترياق أكيد يبطل أثر حلاوتها الساحرة ، وكذلك كان ملتن ، فلم يك ما تملك خياله من الأوهام ليوهن من قوة حكمه على الأشياء فكان له من رجل السياسة في شخصه دريئة تدرأ عنه ما يسحر الشاعر فيه من أسباب الروعة والجلال والخيال ؛ ويدرك ما نعنيه بقولنا هذا كل من يتبين مبلغ ما هنالك من تضاد بين ما أفصح عنه من عواطفه فيما كتبه من مقالات عن القساوسة وبين تلك الأبيات الرصينة الجميلة عن العمارة الكنسية والموسيقى الكنسية في قصيدته البنسيروزو التي نشرت حوالي ذلك الوقت الذي نشرت فيه المقالات[3] ، وتلك من المتناقضات التي تسمو بأخلاقه في نظرنا أكثر من كل شيء غيرها لأنها ترينا كم ضحى ملتن من أذواقه وإحساساته الخاصة لينجز ما يعتقد أنه واجبه نحو الانسانية ؛ وإن كفاحه لهو بعينه كفاح عطيل النبيل ، ذلك الذي رق قلبه ولكن يده ثابتة ، والذي لم يأت عملا قط عن كراهة بل فعل ما فعله كله بدافع الشرف فهو يقبل خادعته الحسناء قبل أن يهلكها » .

ويخيل إلينا أنه وقد رأى شعره في كتاب بلقاء منشوراً يتداوله الناس قد عاود نفسه الحنين إلى النظم ، وتمنى لو ترك ضجيج الحرب وأنباءها وعاد إلى محراب الفن ، ومن ثم كانت مقطوعته عن الساحرة التي نظمها سنة ١٦٤٥ والتي جعل عنوانها « إلى صديقي هنري لو » ؛ وكان لو هو الذي لحن له بعض أغاني أركادس وكومس كما أسلفنا ومثل دور الروح الحارس في الغنائية الثانية وبين الشاعر والملحن من صدر شبابهما محبة ومودة توثقت عراها ولو أن لو كان ملكياً ، ولكن فنه كان أعز على صاحبه من أن يتجافاه بسبب الاختلاف المذهبي بينهما مهما اشتد كما أنه كان لشخصه عند ملتن مكانة لا تدانيها لأحد غيره مكانة . وفي هذه المقطوعة يرفع ملتن قدر لو ويعزو إليه فضل تهذيب الموسيقى في قومه . ذلك الفضل الذي لن تنساه العصور المقبلة ، كما أنها لن تنسى عظيم صيته ، ويقول لصاحبه في ختامها « لقد مجدت الشعر ، وعلى الشعر أن يحلق كما يمجدك ... ولسوف يأذن دانتي لصيتك أن يرفعك مكانا أعلى من مكان مغنيه كازلا الذي لاطفه كما يغني له إذ لقيه في المطهر في غبش أرق من غبش الجحيم »

ولكن الشاعر لا يكاد يلمس بكفه هذه الأوتار الهادئة الساحرة التي طال به عهد هجرانه إياها وعاوده الحنين إليها حتى يدعها إلى أوتار صاخبة ترن رنيناً مزعجاً مثل ضوضاء المعركة ، فقد مس أذنيه طنين هو بقية سخط البرسبتيريز على آرائه في الطلاق ، فنظم سنة ١٦٤٦ مقطوعة عاوده فيها عنفه وصرامة هجائه ونشرها تحت هذا العنوان « إلى مستكرهي الضمائر الجدد في عهد البرلمان الطويل » وفيها يرى البرسبتيريز بتهم قاسية . فيقول إنهم وإن كانوا قضوا في الواقع على سلطة القساوسة فإنهم لم يفعلوا ذلك إلا ليُكْرِهوهم بمبادئهم ضمائر الناس التي حررها المسيح ، وأنهم لم يكونوا خيراً من القساوسة الذين قوضوا سلطانهم لا بدافع النقمة على آثامهم بل بدافع حسدهم إياهم على تلك الآثام ، ثم يتوعدهم الشاعر بكشف الستار عن ألاعيبهم

(١) يقصد مكولي « أوليس » بطل الأودسة فقد مر في سفينته بالساحل الذي كانت تغني عنده جنيات البحر الثلاثة المعروفات باسم « السيرنز » والتي كانت أغانيهن تغوي البحارة فتهلكهم ، وقد قاوم سحرهن بأن ربط نفسه إلى شراع السفينة وسد بالشمع أذن البحارة .

(٢) ساحرة كانت تحيل بكأسها الرجال إلى دواب أو طيور ولكن أوليس وقد مر بجزيرتها وشرب من كأسها كان معه عشب أبطل به سحرها .

(٣) فرغ ملتن من حربه على القساوسة سنة ١٦٤٢ ونشرت قصائد سنة ١٦٤٥ فلعل مكولي يقصد ما جاء من طعن على القساوسة بوجه عام فيما تضمنته كتاباته عن البرسبتيريز سنة ١٦٤٤ أما تلك الأبيات فقد عبر بها ملتن عما يثيره روعة العمارة الكنسية وسماع الأرغن من روعة الدين وحلاله في نفسه وكان يصف كنيسة قديمة كاثوليكية .

ومكرهم ويستعدى عليهم البرلمان ، ويذكر أسماء بعض رجالهم فيسخر منهم ويتحاهلهم ، ويختم مقطوعته بتلاعب لفظى يفهم منه أن البرسبيتر ما هو إلا قسيس كتب اسمه غير مختصر .

وبعد هذه المقطوعة آثر ملتن أن ينفض يديه من الخصومات ولعله سئم طول القتال ، أو لعل ذلك لأنه فى الواقع لم يجد ما يثيره ويسخطه ، أو لعله يئس من بنى قومه جميعاً ورآهم لا يستحقون منه ما يلقى من أجلهم من عنت الخصومات وغل الحزازات .

ولكنه وقد ركن إلى الراحة لم يظفر بها فى بيته فقد ازدادت فى البيت دواعى متاعبه وضيقه ، فأضيف إلى ما فيه من جلبة صراخ بنتين ولدا له تباعا فى سنتى ١٦٤٦ وما بعدها ، وما زال جيرانه وأنسباؤه يضايقونه بمشكلاتهم وأحاديثهم التافهة التى يتجرعها ولا يسيغها ، ولقد شكا من هؤلاء الناس فيما كتبه إلى صديق له بإيطاليا سنة ١٦٤٧ يصف حاله فقال : « هؤلاء الذين لا يربطنى بهم إلا مجرد الجوار يحضرون لمجالستى كل يوم فيضجروننى بل يكادون من فرط ما أحس به من ثقلهم يدفعون بى إلى الموت » .

وفى سنة ١٦٤٧ مات حموه مستر بوول ، ولم يمض غير قليل حتى مات أبوه فحزن الشاعر عليه حزناً عميقاً ، فقد كان يجله ويذكر دائماً ما له عليه من فضل ، وترك له أبوه مالا تحسنت به حاله ، فصرف تلاميذه لأنه استغنى عما كان يناله منهم من أجر نظير تعليمهم ، ولأنه كانت تمعز على قلبه الرغبة فى أن يعود إلى قيثارته ، واستأجر ملتن منزلا جديداً أكثر سعة وأحسن موقعاً ، وأمل أن يجد فيه ما ينشده من هدوء .

ولكن شيئاً جديداً يقلقه ويخيفه وتتكدر له جوانب نفسه ، وذلك أنه بوقن من تضاؤل بصره ، ولقد بدأ ذلك الإحساس فى نفسه منذ مستهل سنة ١٦٤٥ ، فظنه يومئذ وهماً من الوهم ، ولكنه اليوم تلقاء حقيقة راهنة ، فإنه إذا قرأ فى الصباح تألمت عيناه وأحس بظلمة تغشى الجانب الأيسر من عينه ، حتى لتحجب عنه ما يكون فى هذا الجانب من أشياء ... فإذا أضيفت هذه الظلمة إلى ما يكتنفه من ظلمة اليأس مما ابتغى من إصلاح أمكننا أن نتبين مبلغ ما كان يعانيه يومئذ من عذاب ...

فكر ملتن أن يعود إلى الشعر ، ولكن الفجر الذى بشر به فى نهاية كتيبه الأول سنة ١٦٤١ ، والذى لمح إلى طائره الصداح لم ينبثق نوره بعد ، بل لقد ازدادت حلكة الغسق من جراء هذا الاختلاف الشديد فى الدين والسياسة الذى فرق الناس شيعاً وأحزاباً وطوائف متباغية متعاندة ، ومن جراء هذه الحرب المستعرة التى تزلزل المملكة ، وهيهات أن يتغنى شاعر فى ليل كهذا الليل ...

واتجه ملتن إلى التاريخ ، فأخذ يكتب كتاباً فى تاريخ قومه ، ويتبين المرء من مقارنته بين الأقدمين منهم الأمجاد الأذكياء وبين المحدثين الأدعياء الأغبياء مبلغ ما كان فى نفسه يومئذ من سخط وازدراء لأهل عصره ، ومبلغ ما ساوره من هم وسأم من هؤلاء الذين طالما امتدحهم فأطنب فى مدحهم وتوقع على أيديهم كثيراً من الخير !

(يتبع) **الخفيف**

مظاهر العبقـــرية في الحضارة الاسلامية

للاستاذ خليل جمعة الطوال

— ١ —

لقد امتدت عداوة المناوئين للاسلام إلى حد النيـل من حضـارته والطعن فى مدنيته وانتقاص أمره وكل ما من شأنه أن يتصل به ؛ وليس أهون على المتحامل من أن يطعن وينال بغير روية ولا تدبر ، ذلك لأن سبيلهما جد ميسورة ، ومؤنة امتهانهما أيسر ، ومن المؤسف حقاً أن تبلغ العداوة للاسلام بالأوروبيين حد الإجحاف بالحق ، والجناية على العلم والتاريخ ؛ ولئن جاز لرجال السياسة أن ينساقوا لتيار أهوائهم وأن يبنوا أحكامهم على قاعدة أغراضهم ومصالح قومياتهم ، فما أحسب هذه السبيل مشروعة فى كتابة البحوث العلمية ؛ ذلك لأن العلم لا يدخل ألبتة فى حساب الأهواء والقوميات ، بل هو أمر مقدس فوق جميع هذه الاعتبارات يزكو بالنزاهة ، ويزهو بالأمانة له ، وهو فوق ذلك ملك مشاع بين جميع الأمم؛ لا فضل لهذه على تلك فيه إلا بمقدار ما أسدت له من الخدمات ، وأودعت فى كنوزه من الاكتشافات والاختراعات .

وإنه لمن الجناية الكبرى على العلم ، أن تقوم فى طبقة العلماء فئة لم تحرر بعد من قيود النازع ، وأغلال الأهواء ؛ ولا عرفت قط قيمة النزاهة العلمية والأمانة التاريخية ؛ فتحاول جهدها باسم العلم أن تبخس الإسلام فضله على المدنية ، وأن تطمس من سجل الحضارة صفحة مشرقة تشهد بجلائها وروعتها جميع تواريخهم وأدوات حضارتهم ؛ فمن هذه الأحكام الجائرة التى يبرأ منها الإنصاف ويمجها العلم وتلفظها الحقيقة ، ما جاء عن «أندريه سرفيه» إذ يقول : « لم يكن الإسلام شعلة ، بل مطفأة نشأ من قلب متوحش ، لأمة متوحشة ، فكان ولا يزال عاجزاً عن أن يساير الزمن ويجارى التمدن ، ولقد أثبت فى كل بقعة ارتفعت فيها أعلامه أنه وقف صخرة ناشزة فى سبيل التقدم ، وأنه خنق نشوء المجتمع الإنسانى ،[١] » وفى كتب المغرضين الشىء الكثير من هذه الحملات الطائشة والأحكام الفئة الجائرة التى لا يدعمها دليل ولا تدمغها حجة .

لم يقف « سرفيه » عند هذا الحد من التحامل بل راح يقول أيضاً « وإن المدنية الإسلامية أقل من أن يعتنى بدراستها إذ هى تقليد مشوه لمدنيتى اليونان والرومان سقط العرب على مادتها فى الكتب السريانية فاقتبسوها دون أن يعرضوا لها بما يستحق الذكر من النقد ، لأن العربى قد أثبت أن لا قابلية له على استقصاء البحث بصورة جدية ، وأن لا قدرة له ألبتة على إبداع شىء من عنده ، ولم يتقن العرب من العلوم إلا التى لا تحتاج إلى عناء فى التفكير ، أو مشقة فى البحث ، وكانت سبيلها جد سهلة وميسورة كالتاريخ والجغرافيا وما إليهما الخ .. » وأمثال « سرفيه » فى التشيع والتغرض كثيرون ، وتكاد رفوف المكاتب تنوء بتحمل مثل هذه البحوث السخيفة والحملات الطائشة ، ومن المؤلم حقاً أن نسكت عنها ، وننام عليها كأنها حقائق واقعة لا غبار عليها .

على أن تهاوننا فى دراسة حضارتنا ونشر فضائلها وعرض روائعها للبيان ، لأشد إجحافاً بحقها ، وضررا لها من حملات الأعداء عليها وطعنهم بها ، فاللص لا يقتحم غير البيت المهجور ومن واجب صاحب البيت أن يعمل على صيانة بيته ، وأن يقيه شر العدو . وإننا سنتقدم فى هذا البحث الموجز بإماطة اللثام عن مواطن العبقرية فى حضارتنا ، ثم نأخذ بتفنيد مطاعن الطاعنين فيها بالطريقة الهادئة التى رسمناها لأنفسنا منذ أن اضطلمنا بعبء دحض مفتريات الخصوم وحملات المتحاملين .

انحلال الحضارة الغربية قبيل الاسلام :

تسرب الضعف والوهن إلى قلب الامبراطورية الرومانية العظيمة رويداً رويداً ، وما كاد يتم القرن الخامس للميلاد حتى لفظت هذه الامبراطورية الواسعة أنفاسها ، وأصبحت رقعتها مباحاً للقبائل البربرية التى كانت تحيط بها ، وتناجزها القتال ، وتشن الغارة عليها بين الفينة والأخرى ، وهكذا أصبحت قبائل القوط والوندال والكلت والهون ، والمغول ، والسكسونيين تتصرف بشؤون أعظم

(١) الاسلام ونفسية المسلم — لأندريه سرفيه

أمبرطورية عرفها التاريخ ، وكانت هذه القبائل فى الدرك الأسفل من الثقافة ، لاحظ لها قط من أسباب المدنية والعمران ، فقوضت بهمجيتها سرادق تلك الحضارة الرومانية العريقة ، وأصبحت معالمها نسياً منسياً ، واجتازت أوروبا هبة من الزمن كانت تتخبط فيها فى دياجير الانحطاط على غير هدى ، فساد الجهل ، وانتشرت الفوضى ومنيت العقول بالعقم والجدب ، وشل التفكير شلا مريعاً ، ولئن كانت المسيحية إذ ذاك فى عهد انتشارها وازدهارها ، وفى شباب قوتها بحيث استطاعت أن تصمد أمام هذه القبائل المتبربرة المتوحشة ، إلا أن نكبة المدنية بها لم تكن أهون من نكبتها بتلك الشراذم المنحطة ، ذلك لأنها كانت تخشى على عقائدها وتعاليمها من أن تتسرب إليها مشارط الحرية الفكرية فتفسدها ، ولذلك بادرت إلى تقييد الأفكار ، وحجر العقول ، حتى لا تكاد تبض بقطرة من العلم ، وكانت تعاقب على كل نظرية جديدة تصدر عن غير رجال الدين ، ويعلن هؤلاء استنكارهم لها آناً بالموت حرقا وشنقاً ، وحيناً بالتنكيل سجناً وجلداً ... (١)

وكان من نتيجة هذا الحجر على الأفكار وهذا الجهل المطبق أن عم البلاء ، وانتشرت الأوباء ، وأخذ الطاعون يحصد النفوس حصداً ذريعاً .

قال أرديكوس فيتالس أحد مؤرخى القساوسة : « ... عم بلاء المرضى فمضى بأهل بيوت كثيرة ، كما أن الجوع قد أفنى المرضى ؛ فلما أن خربت النيران الأرض ، خرج الأكثرون هائمين على وجوههم ، فلما رأوا أن الأرشيات قد طمست معالمها ودرست آثارها ، فروا من الكنائس الخاوية هربا إلى حيث لا يعلمون (٢) ...

وقيل : « وقد بلغ من سوء الحالة إذ ذاك أن كان الناس يتكالبون على أكل لحم الميتة وإن أنتنت ، ينبشونها من تحت التراب ، ويطلبونها من على المزابل ... لا يسألون عما تسببه من الأذى وتحمله من الموت ، وكانوا يستشفون من أمراضهم ببول البهائم وبالتمائم والتعاويذ والتعزيم » ...(٣)

وقيل أيضاً : « وكان الطباشير يطلب من الأرض ويمزج بالدقيق ، ليصنع خبزاً ، لقد اصفرت وجوههم وانحطت قواهم حتى لقد عجزوا عن أن يجروا أنفسهم من فوق الأرض جراً وهيئت حفر ليسحب إليها المحتفرون ويلقون فى جوفها . وكانت هذه المصائب تلابسها مصائب أكبر ، وكوارث أعظم . فان الذئاب وقد أنسوا على جوانب الطرق كثيراً من الجثث ملكتها الشجاعة وأغوام ضعف الناس فراحوا بها جون الأحياء ، أما مواد الطعام فقد خص بها الأقوياء ليظلوا قادرين على العمل لعل الحقول تزرع ولا تبور ... (١)

وظلت أوروبا تائهة فى ظلام الجهالة : إلى ما بعد القرن العاشر ، تغص بالغابات المخيفة التى تقطنها جماعات الوحوش ، وأسراب الطيور الكاسرة « وتنبعث(٢) من المستنقعات الكثيرة فى أرباض المدن روائح قتالة ، تجتاح الناس وتحصدهم ، وكانت البيوت فى باريس ولندن تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب ، ولم يكن فيها منافذ ولا غرف مونقة ، وكانت البسط مجهولة عندهم ، لا بساط لهم غير القش ينشرونه على الأرض ، ولم يكونوا يعرفون النظافة ، ويطرحون أحشاء الحيوانات وخثى البهائم وأقذار المطابخ فى ساحات بيوتهم فتتصاعد منها روائح مؤذية ، وكانت الأسرة الواحدة تنام فى حجرة واحدة تضم الرجال والنساء والأطفال ، وبعض الحيوانات الداجنة ، وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش فوقه كيس من الصوف القذر يقوم مقام الوسادة ، ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح ، قال درابر : وكان من أثر ذلك أن عمت الجهالة بين الناس ، وساورتهم الأوهام ، فانحصر التداوى فى زيارة الأماكن المقدسة ، ومات الطب ، وانتشرت أحابيل الدجالين ، وكلما دهم البلاد مرض هرع رجال الدين إلى الصلاة ، وأغفلوا أمر النظافة كرها لها ، وكانت الأوبئة تفتك بهم فتكاً ذريعاً .

وإلى جانب هذا الفقر والانحطاط فقد انتشرت الفوضى ، واضطرب حبل الأمن ، وسادت اللصوصية ، وكثيراً ما كان

(١) Gibbon : the Rise and Fall of the Roman Empire
(٢) مجد العرب والاسلام : بحث لاسماعيل مظهر
(٣) المجلة : الأسيوية : تصدرها جماعة المستشرقين

(١) الرسالة : عدد ٢٤٧
(٢) : التاريخ العام : للافيس ورمبو . و (الحضارة العربية) ج ١ — لكرد على .

يخطف السائر وينهب وهو ذاهب إلى بيته أو عمله ولو كان في رائعة النهار .

تلكم هي مدنية أوروبا قبل العصر الحاضر ، وتلكم هي حالة الشعوب الغربية يوم كان الإسلام هو المدرسة الوحيدة التي تهذب فيها الفكر الإنساني ، وانبثقت منها أنوار الحضارة والمدنية.

جاء النبي صلى الله عليه وسلم ، والغرب لا يرى النور إلا من سم [1] الخياط ، وأما الجزيرة العربية فلم تكن بأحسن منه حالاً إذ كانت في جاهلية جهلاء ، يفترس القوى فيها الضعيف ، ويعبد الناس مظاهر الطبيعة ، ويقتلون أولادهم خشية الإملاق ، ويئدون بناتهم بلا رحمة ، وما إن أظهر الله دينه على سائر الأديان حتى أخذ ينشر في الناس روح العلم والمدنية « تعلموا العلم فإن تعلمه لله حسنة ، ودراسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وطلبه عبادة وتعليمه صدقة وبذله لأهله[2] قربة ، وبعد أن لم يكن في الجزيرة سوى بضعة عشر رجلا يحسنون القراءة والكتابة ، فقد أصبحت فيما بعد مثابة العلم[3] وموئل المدنية ، ومورد الحضارة .

لقد كان العلم أول ما فرضه النبي على المؤمنين بعد نبذ الشرك ، وقد حثهم على طلبه ولو في الصين ، وأمر به الله في كتابه العزيز « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ومما يؤثر عن النبي في ذلك قوله « مداد العلماء أزكى من دم الشهداء » وبلغ من حبه للعلم وحثه على طلبه أن قال « أنا مدينة العلم وعلى بابها » . [4]

مبدأ الحضارة الإسلامية :

لقد أعلن الله رسالته ، فأقبل الناس يدينون بها أفواجاً أفواجاً ، ثم مات النبي صلى الله عليه وسلم ، وليس في الجزيرة بأسرها إلا توحيد فلج الشرك ، وإيمان زعزع الأصنام ، فتوجه خلفاؤه الصالحون من بعده برسالته صوب بقية أقطار العالم الأخرى ، ينشرونها بين شعوبها المتفككة ، فيتسابق الناس للاحتماء بها هرباً من عسف تلك الدول الغاشمة التي كانت ترزح لسلطانها ، وتئن تحت نيرها ، وما هي إلا عشرات من السنين إلا وشريعة ذلك اليتيم المسكين هي الشريعة السائدة في الكون والمسيطرة على العالم ، وإلا صوت التهليل والتكبير قد أخذ يدوى في أرجاء إسبانيا من على سطوح الكنائس التي كانت فيما مضى مركزاً للمرضى ، وبؤرة للأوباء ، وكان أول ما فرضه المسلمون على العالم إلى جانب ديانتهم هي لغتهم العربية ، التي بها لا بغيرها نزلت رسالة الله على نبيه ، فقد أملوها على جميع الأمم التي رضخت لسلطانهم ، وخضعت لدولتهم ، وقد بلغ من سعة امتدادها ، وسرعة انتشارها[1] أن أصبحت بين العالم في مكان اللغة اللاتينية القديمة ، أي لغة العلم الوحيدة ، ولسان المتعلمين ، وبلغ من تفوقها أيضاً أن صارت هي الواسطة الوحيدة لكل من أراد أن يلم بنواحي الثقافتين اليونانية والرومانية ، أو يطلع على أحدث العلوم والآراء العصرية .

العربية لغة عالمية :

جاء في تاريخ اللغات السامية لرينان : « ليس في تاريخ العالم ما هو أدعى إلى التعجب من سرعة انتشار اللغة العربية ، فقد كانت في بدء أمرها لغة خاملة الذكر ، فاذا بها تظهر فجأة على مسرح الحضارة والمدنية وارثة للغة اللاتينية القديمة ، وإذا بها لغة في غاية السلاسة والغنى ، كاملة بحيث لم تعرف منذ ذلك العهد أي تغيير أو تبديل . وقد ظهرت لأول أمرها تامة مستحكمة، فليس لها طفولة : ولا هرم . ولست أعلم وقع مثل ذلك لأية لغة أخرى في العالم دون أن تجتاز قبل ذلك أدواراً مختلفة ، فإن العربية ولا شك قد عمت أكبر أجزاء المعمورة ، ولم ينازعها في مكانتها من حيث كونها لغة عامة عالمية إلا لغتان : اللاتينية واليونانية . ومع ذلك فقد تطرقت إلى أقطار نائية ولم تصل إليها هاتان اللغتان قط »

وجاء في خطط الشام لمحمد كرد علي[2] « بذت العربية في الإسلام اللغة الفارسية والسريانية في العراق وفارس ، والرومية ، والسريانية في الشام ، والقبطية والرومية في مصر ، واللاتينية في شمال أفريقيا ، ولم يمض سبعون سنة حتى أصبحت العربية اللغة العامة في هذه الأقطار ...

(يتبع)

خليل جمعة الطوال

(1) دوزي : تاريخ المسلمين في أسبانيا .
(2) Sayed Ameer Ali The Spirit of ISLAM
(3) : الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي
(4) الجامع الكبير

(1) : العلوم والعمران في الأعصر الوسطى : لجورج سارطون .
(2) خطط الشام ج ١ ، الاسلام والحضارة العربية .

في الأدب الانجليزي :

شكسبير والمعاصرون (*)

للأستاذ جريس القسوس

كان ظهور شكسبير في عالم الشعر وائتلاق نجمه في الأوساط الأدبية وهو الرجل غير المثقف من معجزات ذلك العصر بل كل العصور بالحقيقة ، فقد كان يتنازع الشهرة الأدبية وزعامة الشعر فريقان ، الأول مكون من رجل واحد هو كريستوفر مارلو (١) (Marlowe) الشاعر النابغة الفحل ، والثاني يتزعمه توماس ناش (٢) (Nash) وأغلب أعضائه من الشخصيات العلمية الجامعية ، فناش وصحبه تخرجوا في جامعة كمبردج وغيرها من كبريات الجامعات في انجلترا .

وبالرغم من اشتداد التنافس والتناحر بين هذين الفريقين فقد كان من المسلم به أن مارلو هو الزعيم الأدبي والشاعر العبقري غير مدافع .

لكن الخطر كل الخطر داهم هذه الشخصيات العلمية الجامعية بظهور ممثل من عامة الناس لم يكن له شأن من قبل أو خطر ، أخذ في تأليف المسرحيات على شتى أنواعها ، والتجديد فيها وإعدادها لفرقة تشمبرلن التمثيلية بمظهر ملائم ذوق الناس الأدبي .

وقد سبق أن نشر شكسبير من قبل قصيدتين مذيلتين باسمه الصريح ، فلفت إليه الأنظار ، وجعل الأدباء يرمقونه بروح الدهشة والقلق والإشفاق . كان ذلك في ٣ سبتمبر ١٥٩٢ حين وافى الأجل الأديب المعروف روبرت جرين (٤) (Robert Greene) تاركا مقالا مخطوطاً ، فتولى هنري تشتل (Henry Chettle) نشره في الثامن من ديسمبر من تلك السنة ، وفيه تعريض بهذا الشاعر الطارىء الحديث الشأن كما سترى . بيد أن تشتل عاد فنشر اعتذاراً من شكسبير وثناء عليه لدماثة خلقه وأمانته واستقامته ، وكذلك لسمو فنه الأدبي . وفي ختام مقاله يخاطب جرين ثلاثة من المؤلفين المسرحيين هم مارلو وتوماس لودج (١) وجورج پيل (٢) ناصحاً إياهم أن ينصرفوا إلى غير مسائل التأليف . وفيه ترد العبارة المشهورة التي تشير إلى ظهور شكسبير « ذلك الغراب المحدث ، المتزين بريشنا ، الذي بمجرد قوله : (قلب النمر المكتسى بجلد الممثل) يعتقد أنه يجيد نظم الشعر المرسل (Blank Verse) كأحسن الشعراء . هذا الشخص الذي (يحذق حرفاً عديدة) (٣) ، وهو عند ظنه (الشيكسين) (Shakescene) الأوحد في بلده . »

ومن الجلي الواضح أن جرين بذكره (لقلب النمر المكتسى جلد الممثل) إنما يشير إلى وصف شكسبير (لقلب النمر الملتف بجلد المرأة) الوارد في الجزء الثالث من مسرحية هنري السادس (٤) التي كانت تعرف قبلاً (بمأساة ريتشارد أوف يورك) ثم في لفظة (شيك سين)(Shakescene) إشارة واضحة إلى اسم شكسبير ، ذلك لما بين الكلمتين من تشابه لفظي ظاهر . أو قد يكون المقصود بذلك ، ومعنى (شيك سين) : (يحرك المنظر ، أو يغير المشهد) ، غمز الشاعر من طرف خفي ونقده بأسلوب رقيق هادىء لرجوعه إلى النسخة الأولى من (هنري السادس) وهي من تأليف جرين وصحبه ، وإخراجه نسخة جديدة من تلك الأصلية القديمة .

ومن قول جرين هذا نخرج بثلاث حقائق راهنة : —

الأولى : إن شكسبير كان ممثلاً وكاتباً مسرحياً بعيد الصيت ، فلا عجب أن ملأ نفوس الأدباء المعاصرين بالحسد والحقد والضغينة والمقت الشديد .

الثانية : ظهور مسرحية (هنري السادس) بأجزائها الثلاثة والتي ربما مسها شكسبير بقلمه كما يتبين من نشرها في المجموعة الأولى لمسرحياته (١٦٢٣) .

والثالثة ، إن شكسبير كان في بعض الأحيان بل أغلبها

(*) من كتاب عهد شكسبير لم يظهر بعد .
(١) يحمل شهادة (م . ع .) من جامعة كمبردج (١٥٦٤ — ١٥٩٣) .
(٢) (١٥٦٧ — ١٦٠١)
(٤) (١٥٦٠ — ١٥٩٢) .

(١) ١٥٥٨ — ١٦٢٥ ؟
(٢) ١٥٥٨ — ١٥٩٧ ؟
(٣) Johannes Factotum
(٤) الفصل الأول المشهد الرابع سطر (١٣٧)

يسطو على بعض القصص فى مسرحيات غيره من الأدباء، وينهبها فى وضح النهار نهباً . ويتضح هذا من قول جرين (الغر المكتسى بجلد المثل) ، ومن (الريش الذى استعاره منا الغراب الأسحم ليتزين به).

أما المسرحيات التى أثارت دهشة جرين وحسده وجزعه معاً فلا يبعد أن تكون (هنرى السادس) التى راجعها الشاعر على كل حال وترك فيها أثراً ظاهراً . فقد لفتت إليها نظر جرين وأقرانه لما فيها من ازدحام الحوادث المتنوعة بشكل لم يعهد من قبل ؛ وكذلك (تيطس أندرونيكس) التى يعتقدون أن شكسبير لم ينفرد بتأليفها بل اشترك فى مراجعتها وتصحيحها ؛ وهى مأساة رائعة إذا قيست بمآسى مارلو وتوماس كد[1] Thomas Kyd التى كانت تعد من أعظم وأنفس ما شاهده ذلك العصر . وبتأثير ليلى[2] (Lyly) طرق شكسبير باباً جديداً فى فن الدراما هو الملهاة (Comedy) المفعم بالمحسنات اللفظية والكناية والاستعارة ، فقد كان يحبذ هذا اللون من أساليب الكتابة الناشئون فى الأدب ، وهو أبرز ما يتمثل فى جهد (الحب الضائع) (Love's Labour's Lost)

هذه هى المسرحيات التى ألفها شكسبير قبل وفاة جرين ، فاسترعت انتباهه ، وحولت إليه أنظار الأدباء والناس جميعاً . وبعد وفاة جرين بسنة يأفل نجم مارلو فى سماء الأدب ، ثم يقضى كد (Kyd) نحبه سنة ١٥٩٥ ، ويعرض لودج (Lodge) عن الأدب وينصرف إلى ممارسة الطب ، ويخرج ليلى من القصر ، وينغمس بيل (Peele) فى اللذات وينقطع عن الإنتاج الأدبى ، ويتحول ناش إلى أدب الهجاء والقصة وهذا لا خطر منه . حتى إذا ما جاء عام ١٥٩٨ لم يشهد فى حلبة الأدب المسرحى على الأخص من ينافس شكسبير أو يجاريه .

ومن المحال أن تذكر لأديب ما فى ذلك العصر مأساة أو ملهاة كان لها ما لأدب شكسبير الدرامى من قيمة أو وزن . فلا عجب أن ترى أستاذاً جامعياً كبيراً كتوماس ميرز[3] (Thomas Meres) يضع شكسبير فى مصاف المسرحيين الماليين الذين نبغوا فى بابى الملهاة والمأساة . فقد وضع ميرز كتاباً اسمه (بلادس تاميا)[1] (استعرض فيه المجهود الأدبى منذ تشوسر[2] حتى عصر اليزابث ، وتناول بالدرس والبحث نحو مئة وخمسة وعشرين أديباً من أدباء الإنجليز ، مقارناً بين كل واحد منهم وبين من يرى أنه يشبهه من أدباء العصر الاتباعى القديم ، أو أدباء الطليان فى عصر الرينسانس . وفى هذا الكتاب يشير إلى شكسبير مطرياً شاعريته الفذة ، كما تجلت له فى قصيدتى (فينس وأدونيس) (ولوكريس) ويرى أنه ليس دون أوفيد[3] الشاعر الرومانى المظيم مؤلف (التامور فيسس)[4] أوبلوتس[5] شاعر الملهاة عند الرومان ، وسنيكا[6] الفيلسوف الرومانى الذى برع فى تأليف المأساة . فيقول ميرز إن شكسبير لا يقل عن هؤلاء جميعهم فى مسرحياته (كوميديا الأخطاء ، وجهد الحب الضائع وسيدا فيرونا ، وحلم ليلة فى منتصف الصيف ، وتاجر البندقية ، وريتشارد الثانى والثالث ، وهنرى الرابع ، والملك جون ، وروميو وجوليت ، وتيطس أندرونيكس) .

ولهذا القول ولتعداد هذه المسرحيات قيمة مزدوجة ، الأولى وهى مجرد ذكرها وعزوها لشكسبير دون غيره ، وفى هذا رد على الذين يعزون نظمها إلى غيره ، وفيه دلالة على أنه ألفها قبل أن يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، والثانية تألق نجم شكسبير فى سماء الأدب وازدهار شهرته الأدبية فى برهة وجيزة ازدهاراً لفت إليه الأبصار .

ولم يقف الأمر عند إشفاق الأدباء ، وقلقهم وجزعهم ، أو ثناء البعض الآخر عليه وإعجابهم به ؛ فقد وردت إشارات عدة فى الأدب المعاصر تشيد بذكر هذا الأديب (ذى اللسان

(١) (١٥٥٧ — ١٥٩٠ ؟) .
(٢) (١٥٥٤ — ١٦٠٦) .
(٣) (١٥٦٥ — ١٦٤٧) .

(١) Palladis Tamia
(٢) (١٣٤٠ — ١٤٠٠) .
(٣) ovib (٤٣ ق م — ١٨ م)
(٤) Metamorphoses مكونة من كلمتين من أصل يونانى معناها (تبدل الأشياء) .
(٥) Plautus (٢٥٤ — ١٨٤ ق م) .
(٦) Seneca (؟ — ٦٥ ق م) .

وردة اليـــازجي

للأستاذ يوسف يعقوب مسكوني

— ٢ —

وقالت ترثى الأمير أمين أرسلان المتوفى سنة ١٢٧٥ هـ :

كأس المنية دائر بين الورى ... يسقى الكبير ولا يفوت الأصغرا

ما هـــذه الدنيا بدار إقامة ... إلا كطيف الحلم فى سنة الكرى

كل على هذا الطريق مسافر ... لا بد منـه مقدماً ومؤخرا

وكذلك تقول :

هـــذا الذى بالأمس كان مكانه ... ثم القصور فـكيف يرضى بالثرى

ثم أيضاً تقول بما فيه الجناس :

سار السرور عن السرير لفقده ... وعن السرائر والأسرة قد سرى

هذا هو السيف الصقيل أصابه ... سيف من القدر الذى قد قدرا

تبكي البلاغة والبراعـــة والحجى ... والعزم فى الخطب الشديد إذا اعترى

لو تعلم الشمس المنيرة فقده ... كسفت أو البدر المنير تحيرا

أو كان للحجر الأصم محاجر ... أجرى عليه من الدامع أنهرا

وكذلك فهى تقول :

يا ركن لبنان المظيم عليك قد ... كادت ربى لبنان أن تتفطرا

إلى أن قالت :

إن كنت غبت عن العيون فلم يزل ... لك رسم شخص فى القلوب مصورا

ثم تقول أيضاً :

لو كان يظهر سحاب ضريحه ... إلا على صفحاته لم يمطرا

وكذلك تقول خاتمة :

ناداه رب العرش من كرسيه ... هانحن أعطينا الأمين الـكوثرا

وقالت ترثى ولداً نبيهاً :

زوّد النعش قبل شد الرحال ... إن هذى الحياة طيف خيال

المعسول) (والعِرق الذى يفيض شهداً) (والخلق السمح والبال الرخى) .

ولقد كان له فى نفس بن جونسون[1] صديقه الأدنى وثانى الشعراء والمؤلفين المسرحيين بعده منزلة وطيدة راسخة الأثر ، برغم أنه كان يغمزه أحياناً ويأخذ عليه ما يبدو فى أدبه من نقص فى الثقافة والعلم . فإنك لا ريب ذاكر تلك القصيدة العصماء التى قد لا يعلو عليها شيء فى الرثاء ، وقد نظمها بعد وفاة شكسبير ، وصدر بها المجموعة الأولى من مسرحيات شكسبير ، وفيها يؤبن الشاعر ويطنب فى مدحه ، فيصفه (بأوزة آفون الحلوة)[2] (وبأنه روح العصر ، وفخر المسرح وجـذله وسروره) ، ثم يضعه فوق تشـوسر وسبنسر[3] وبيمونت[4] بل يجعله وحده (تمثالا فريداً لا ضريح له) .

ثم يصف كيف غشى نجم شكسبير بنوره المتألق الساطع وأخفى ضياء تلك الـكواكب الزاهرة فى عالم الأدب كمارلو وكد وليلي وغيرهم من فطاحل الأدباء . وفى هذه القصيدة : نفثة من هاتيك النفثات الفريدة الصادقة التى يلفظها أحيانا العقل والقلب معاً فتقارب بقوتها وسحرها وروعتها أخلد النبوات . (فهو يرى لبريطانيا أن تسر وتغتبط إذ أنجبت هذا الإبن العظيم الذى سوف تبايعه وتطيعه وتخلص له جميع المسارح فى أوروبا ؛ وأن شكسبير لم يكن لعصر واحد ، وإنما للزمان بأكله ، ولا أظنك بحاجة لشرح وبسط ما حققت الأيام من هذه النبوة الرائعة ، فقد أصبح شكسبير منهلا للأدب عذبا ، ومنبعاً لا يغيض ماؤه وأضحى نجمه يشع فى سماء الأدب إشعاعا ، ويتلألأ بالنور الزاهر الدائم ، فيهتدى به الشعراء فى انجلترا وفى معظم أقطار العالم أيضاً .

شرق الأردن

عيسى فتوح

---

(١) (Ben jonson)

(٢) Sweet Swan of Avon

(٣) Spenser شاعر انجليزى كبير معاصر لشكسبير

(٤) Beamont معاصر لشكسبير أيضا

وحياة الدنيا طريق يؤدي ... نحو دار البقاء ذات الجلال

وتقول :

يا هلالا قد احتوى نور بدر ... كيف لو تم نورك التلالى

إن يكن قد خلا سريرك يوماً ... منك فالقلب ليس منك بخال

وقالت ترثى الأمير سعيد الشهابي :

ترى من غاب عنا هل يعود ... لعمرك إنه أمــل بعيـد

فراق الحى محدود ولكن ... فراق الميت ليس له حدود

ثم تقول :

شريف الأصل من أشراف دهر ... تسلسـل والرواة له شهود

وكذلك فهى تقول :

فته عجباً أيا قــبراً حواه ... وقل أنا فى الورى فلك جديد

فريداً كنت ما بين البرايا ... وأنت اليـوم فى قبر فريد

لأعين أهله سهد طويل ... ومن عبراتهم بحر مديد

ثم تقول :

لئن تك غبت عن دار ستفنى ... فى الفردوس صار لك الخلود

وقالت ترثى كاتبة بنت موسى بسترس التى ذكرناها آنفا وهى من صديقاتها اللواتى كانت تراسلهن :

يا بنت موسى قد دعاك الله من ... طور الجلال كما دعاه بما مضى

قد شق موسى بالعصا بحراً طغى ... ونراك شققت القلوب بلا عصا

ثم تقول :

قد أنشبت فيك المنون سهامها ... ظلما ولم تشفق على ذاك الصبا

وكذلك تقول :

بكت المعارف واللغــات تأسفاً ... يوم الفراق على المعـــارف والتقى

ورثت سارة بنت المعلم بطرس البستانى بقولها :

يابين ويحك هل أبقيت فى البشر ... عيناً بلا دمعة حرى ولا كدر

ومنها :

تبكى على فقدك الأتراب دمع دم ... أغنت تراك به عن مدمع المطر

قد كنت بين بنات العصر جوهرة ... عظيمة الشأن تزرى أفضل الدرر

ثم تقول :

يا نومة ما لها من يقظة أبداً ... وغيبة ما لها فى الدهر من حضر

إن لم تعد نحونا يوماً فنحن غداً ... نسعى إليها ولو كنا على حذر

وفى رثاء أخيها حبيب تقول :

ياعين وردة فى الأسحار والأصل ... أبكى لفقد حبيب عنك مرتحل

ويا فؤادى تفتت بعد مصرعه ... فان سيف المنايا سابق العذل

ويا سلو ابتعد عن مهجتى أبداً ... ويادموع انزلى كالعارض الهطل

ثم تقول :

غاب الحبيب حبيب الروح عن حلل ... باتت لفرقته فى أســـود الحلل

ويحى من البين إن البين جارحنا ... بأسهم لم تزل منها على وجل

وكذلك تقول :

رمى الحبيب بسهم قد أصيب به ... فبات منطرحاً كالشارب الثمل

روحى فدى ذلك القد الذى قصفت ... منه المنايا قواماً كان كالأسل

روحى فدى ذلك الوجه الذى كسفت ... جماله حادثات الدهر والعلـــل

يا فارس[1] اليوم أشرق قد أتاك على ... قرب حبيب فلا تشكو من الملل

بدران أظلمت الآفاق بعدهما ... فى مقلتى وضاقت بالأسى سبلى

قد كدرت غير الأيام موردنا ... وبدّل الدهر مارجوه من أمل

ثم تقول :

لا أخمدالله ناراً فى الحشا اشتعلت ... منى ولا نشفت عينى من البلل

---

(١) وفارس هذا هو أخوها وقد توفى قبل أخيه وقد رثته وردة بقصيدة ورد منها هذه الأبيات وهي قطعة من كبدها ومطلعها هو :

يا بين ويحك كم أشعلت نيرانا ... على القلوب وكم أدميت أجفانا

وتقول أيضاً :

يا ويح خنساء عينى وهي باكية ... صخراً بدمع لديه الصخر قد لانا

وكذلك تقول :

يا مهجــة القلب هل عود نؤمله ... وهل كتاب سلام منك حيانا

ألبستنى ثوب حزن لست أخلعه ... حتى أبدل منــه فيه أكفانا

لا رطب الله قلبــاً ظل مشتعلا ... منى ولا جف دمع سال غدرانا

وتختم رثاءها قائلة :

فاذهب عليك سلام الله ما طلعت ... شمس وزادك من نعماه رضوانا

ولا عرفت سلواً فى الحياة إلى
أن ألتقى بك فى مستقبل الأجل

ثم قالت ترثى والدها وقد توفى سنة ١٨٧١ م :

تكاثرت الأحزان فى كبدى الحرى
وزادت دموع البين فى عينى الشكرى
وجارت على ضعفى الليالى وأوقدت
بطى فؤادى من نوائبها جمرا
وقد آلمتنى الحادثات بصرفها كآلمت خنساء إذفقدت صخرا

ثم تقول :

فتباً ليوم فرق الدهر شملنا وجمع فى قلبى مصائبه تترى

وهى تقول أيضا :

أيا علم الشرق المبجل والذى أقرت له بالفضل كل الورى طرا
ويامعدن العلم الذى ضمه الثرى وكم معدن كان التراب له سترا
ويا بحر فضل كان بالدر زاخراً لفقدك كاد البحر أن يفقد الدرا
ويا من بمسراه تيتمت العلى كما يتم التأليف والنظم والنثرا
ينوح عليك الشعر دهراً وطالما
بك اهتز فاستعلى على فلك الشعرى

ثم تختم قائلة :

وقد غبت يا شمس العلوم وبدرها
فأصبح كل ينـدب الشمس والبدرا
فيا قبره أكرم أعـز وديعة
بطيك لم تبرح لأهـل الورى ذخرا

أما مطلع قصيدتها فى رثاء أخيها نصار وقد توفى فى مدينة زحلة سنة ١٨٧٤ م فهو :

وبلاه وبلاه كم نشكو ونتتحب وكم علينا صروف الدهر تنقلب
وكم تجور الليالى فى حوادثها على فؤاد بنار الحزن يلتهب

ثم تقول :

باأرض زحلة لى فى حبها شغف إذ فى حماها شقيق الروح محتجب
يا راحلا راح صفو العيش يتبعه
واستوطنت بعده الأحزان والكرب

ثم تقول أيضاً :

يا قلب صبراً على ما قد أصبت به ولا ترعك البلايا وهى تعتقب
قدعودتك الليالى الحزن من صغر حتى غدوت إلى الأحزان تنتسب

إلى أن قالت :

يا رحمة الله زوريه ميممة ترباً له قد سقت أرجاءه السحب
وآنسى من ثراه مضجعاً بحمى لبنان فيه حبيب القلب مغترب
منى عليه سلام الله ما غربت
شمس وما طلعت فى أفقهـا الشهب

وفى رثاء أختها راحيل تقول :

متى تترك الأيام دمعى لا يجرى وقلبى المعنى لا يبيت على جمر
أبى الله أن أنسى وكيف وفى دمى
قد امتزجت أحزان خنسا على صخر

ثم تختم الرثاء بقولها :

وما لك قبر واحـد فقلوبنا
قبور حوت أمثال شخصك فى القبر

وقالت ترثى أخاها خليلا :

رويدك يا من قد نعيت لنا البدرا
أتحمل نعياً ضمن طرسك أم جمـرا
ألا أيها القلب الحزين إلى متـى
تقاسى خطوب الدهر منقضة تترى
تراكت الأرزاء من كل جانب عليك فلا يوم يمر بلا ذكرى

ثم قالت :

وياطرف إن جفت دموعك فاتخذ دم القلب دمعاً فوق تربته يُذرى

وتقول أيضا :

ولم أوف حق الحب إن لم أمت أسى عليه فعيشى صرت أحسبه غدرا

وتختم الرثاء بقولها :

سلام على وجـه الخليل وناره
بطى الحشا قد أفنت القلب والصدرا
له العفو والرضوان من فضل راحم
ولى مدمع الخنساء إذ فقدت صخرا

(يتبع) **يوسف يعقوب مسكونى**

شاعر عربى فى لندرة :

جنة الأوهام ... !

للأستاذ عبد القادر القط

أسلمت للوهم أفكارى ووجدانى   وذقت فى خَدَر الأوهام سلوانى
أمضى مع الناس لاعينى بشاهدة   ما يشهدون ولا صوت بآذانى
دنياىَ عالمُ أحلامٍ مهومة   تهفو فتمسح آلامى وأشجانى
وأغتدى ورؤاى البيض تبسم لى   وفى خيالى تهويمات وسْنان

هجرت ما كان من يأسى وموجدتى
وصفت بعد مرير الصمت ألحانى

كم ظلت أضرب فى دنياى محتقبا   فى القفر شوق وآمالى وتحنانى
يلوكهن فـؤاد جائع بشِمٌ   من الأسى وضمير مُثقل عانى

نوازع من رغابٍ طال ما احتبست
وطال ما لقيت من سوط سجّانى

يعتاقها عن طِلاب الرحب محبسُها
وتلتظى لهباً من نار حرمانى

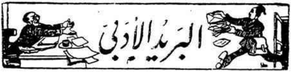
خرساء منطقها وخزٌ وشارتها   وقع المعاول فى موهون بنيانى
تململت فأصاب القلب حرقتها   وملَّ جذوتها صبرى وإذعانى
نادبت من ألمى وهمى فأسعدنى   بجنة من خيالى ذات أفنانى
أطلقتهنَّ بما يمرحن فى شعب   ونمتُ بعد سهادى ملء أجفانى
وعفت صحوة دنيا كنت أعشقها   وبتُّ أشرب من دَنّى ومن حانى
ساقٍ ألبقُ من دارت على يده   كاسٌ وأعرف آس عند أحزانى
إذا طلبت عزيز الراح بادرنى   وإن طلبت رخيم اللحن غنّانى
فى كل دفقة كأس ينتشى أملٌ   وبُغيةٌ سئمت أعماق نسيانى
أرى بأفقىَ ما أخمدتُ شِرّته   من الرغّاب وسحباً ذات ألوان
بكل دانيـة منها يطالعنى   مجدى وحبى وأعوانى وخلاّنى
أروح للحبٍّ حتى يكتفى نهمى   وأنهل المجد حتى يرتوى شانى
نجواى فى الليل أبكار معطرة   أبيت ليلىَ أرعاها وترعانى
أصوغ من ألقِ الأطياف فتنتها   وقلبها من وفاءٍ عاطف حانى
غنيت بالوهم عن دنيا مخبَّلة   تلقى القياد لذى جاه وسلطان
يذوق لذة ما أولَتْهُ نعمته   يحسّ أبله غافى القلب سأمان
تلقى القياد وتُلقى من مرارتها   إلى فم رحيق الشهد هيمان
يحسُّ كل شهىٍّ فى قرارته   بمترفٍ من سرىٍّ الذوق فنان
مدلَّه بالنعيم الحلو يدركه   بالروح والجسم . بالباقى وبالفانى
دماؤه شهوة حمراء دافقة   والروح بالشهوة البيضاء فى حان
أمضيت ريق شبابى فى الحياة لقىً   أطفو على تبَج بالهمِّ ملآن
أرعى بقية إيمان أعللها   ويطفر الشك من آن إلى آن
حتى ترامت لى الأوهام فى شفق   ضافى الجمال على الآفاق فتّان
خفقت ملء جناحى نحو ساحته   وضاع بين الرؤى شكى وإيمانى

نهـــاية ... !

للأستاذ محيي الدين صابر

لا حانتى ، رجَّعت شدوى ولا الساق
يا هـذه ! ! أين أحلامى وأشواق ؟

ظمآن أخفق فى الصحراء مغتربا   كأننى خطوة فى ساق أفّاق ! !
أُسرُّ للرمل حنّاتى ومسكنتى   كم من هوى تحته كالنبع ، ألاق
فكل ذرة رمل ، قلب محترق   أوحسن غانية . أوفكر خلاّق
ويسكت الرمل إشفاقا وسخرية   فكم تولى بعشاق وعشاق ! !
وأسأل الريح زفّافا مواكبها   تدور فى زمنٍ محلٍ وآفاق !
متى عبرت بواد كنت أعمره   فى واحة طَلةِ الأحناء غيداق ؟!
وتعصف الريح أنفاساً مشرَّدة   يا طالما عصفت عن قلب خفاق
والليل ! يعرفنى طوّاف كعبته   يا ليل ! فانشق عن فجرى وإشراق
يا ليل ! واردد صباباتى وأخيلتى   واملأ عروقى بوهم منك رقراق !
ويطرق الليل ... أطلالا مقيدة   يا رُبَّ ضيعة حلم خلف إطراق
وا رحمتا للمنى أفنيت ريّقها   فى خادع من مراعى الوهم ، برّاق
وللهوى الضخم محموماً نوازعه   أمسى رماداً على روحى وأعماق ! !
ظلمت يا غادة المحراب ما نسجت   شفاه مشتاقة ظمأى ، ومشتاق
هلا ذكرت على القمات مسبحنا   على جناح بقلب الفجر صفّاق ؟!
وأغنياتى فى أذنيك من وتر   منغَّم الوحى بالإلهام طرّاق



١ — قتيبة بن مسلم :

لمجلة « الرسالة » مكانة سامية فى الأوساط العلمية فى جميع البلاد العربية ، ولكتابها منزلة فى النفوس لا تساميها منزلة غيرهم من الكتاب . فإذا استعظم على أحدهم هفوة لسان طفيفة أو زلة قلم خفيفة ؛ فذلك لما للقراء — على الرسالة الغراء وعلى كتابها — من الدالة ، ولما لتلك المجلة وأصحابها من الاجلال والاكبار فى نفوس أولئك القراء .

ومن أولئك الكتاب الذين لكتاباتهم روعة قوية ، وتأثير عميق فى النفس : الأستاذ الجليل « على الطنطاوى » ولا أدل على ذلك من مقاله القيم المنشور فى العددين ٦٨٠ وتاليه بعنوان : (من التاريخ الإسلامى — قضية سمرقند) ، ولا ينقص من روعة ذلك المقال أن يفهم القارىء منه أن قتيبة بن مسلم الباهلى الفاتح العظيم ؛ أدرك عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز خلاف ما يفهم من مصادر التاريخ الصيحة التى تنص على أن قتيبة لم يدرك ذلك العهد ، بل قتل فى عهد سليمان بن عبد الملك .

« الرسالة » : لقد سبق الأستاذ الطنطاوى فنبه إلى ذلك .

٢ — أتاريخ صحيح أم خرافة ؟! :

وهذا المربى الأستاذ الكبير كامل كيلانى يقول فى عدد « الرسالة » ٦٨٢ : (منذ خمسة عشر قرنا تنقص عشرات قليلة من السنين وُلد خرافة القاص العربى المخضرم الذى عاش فى العصرين الجاهلى والاسلامى ... وقد عاصر جحوان الصحابى جد أبى الغصن عبد الله دجين بن ثابت الملقب بجحا ... وكانت أم جحا تخدم أم سليم بنت ملحان والدة مالك بن أنس راوية الحديث المعروف ... ثم مضى القرن الأول ومضى معه خرافة ومعاصروه . ثم جاء القرن الثانى فكان من مولوديه أبو الغصن عبد الله دجين بن ثابت الملقب بجحا) . ولكن قوله هذا لا يؤثر فى منزلته باعتباره أحد الأفذاذ الذين أسدوا للجيل الجديد منة عظمى مجسمة فى كتبه القيمة النافعة « مكتبة الأطفال » ، وإن فُهم من ذلك القول مخالفة الحقائق الآتية :

١ — أم سليم بنت ملحان والدة أنس بن مالك الصحابى الجليل الذى خدم الرسول صلى الله عليه وسلم عشر سنين . لا مالك ابن أنس الإمام المحدث المشهور صاحب كتاب « الموطأ » المتوفى سنة ١٧٩ هـ .

٢ — أم سليم صحابية أدركت عهد الرسالة ، وحضرت وقعة « حنين » وجرى لها فيها حادثة طريفة ، وتوفيت فى أول القرن الهجرى الأول . فكيف تكون أم جحا خادمة لها ، ثم تدرك القرن الثانى ويولد لها ابنها جحا فيه ؟!

٣ — كيف يعيش فى القرن الأول الهجرى ويعتبر مخضرما من ولد قبل ذلك القرن بمائة سنة أو أكثر ؟!

(الطائف) **محمد الجاسر**

حول صور سودانية :

قرأت أخيرا فى « الرسالة » ٦٨٠ للاستاذ حسان خضر مقالا عنوانه « صور سودانية » يقول فيه : (ليس التقاء النيل الأبيض بالأزرق عند الخرطوم كما يقول الجغرافيون وإنما هو أقرب إلى مدينة أم درمان وهو يبعد عن الخرطوم نحو (١٥ كيلو) ، ولو أنه كتب هذا ولم يتعرض للجغرافيين لقلنا إنه سهو .

إن المكان الذى يلتقى فيه النيلان والمسمى « بالمقرن » حيث الحدائق المشهورة يحد الخرطوم من شمالها الغربى وعنده تنتهى مدينة أم درمان فى جنوبها الشرقى وليس هناك (كيلو) واحد يبعد « المقرن » من الخرطوم .

(كسلا) **حسن أحمد البشير**

نسيتِ فى السفح أيامى معذبة   تبكى وتسأل عن عهدى وميثاق
قد أنكر الدوح فى الشُّطآن مُغتربى
فرداً ؛ أقيم على حزن وإشفاق
وقد يكون ولى نجوى ولى قُبل   فى ظله من هوًى فى القلب وفاق!
ياوحشة ، ملأتنى جهشة وأسى   فى ذكرياتك عندى شارد باق !
تدور فى دمىَ الدنيا مُعطّلة   كأنها أدمع جالت بأحداق !
هى الحياة زحمناها منىً وهوًى   ألوت بوان ، ولم تسلس لسباق!
وقد قنعتُ ! وردناها على ظمأ   فجفت الخمر دونى وانطوى الساق



مطـــاردة ...!

للقصصى الانجليزى سومرست موم

بقلم الأستاذ محمد عبد اللطيف حسن

عند ما أرست بنا السفينة على ثلاثة أميال من الشاطئ الشمالى لجزيرة بورنيو ، تقدم ربانها نحوى ومد يده إلى مصافحاً وتمنى لى حظاً سعيداً طيباً . فانتهزت بدورى هذه الفرصة التى أتاحها لى وشكرته على تلك العناية العظيمة التى بذلها نحوى فى خلال تلك الرحلة الطويلة المتعبة ، ثم أخذت طريقى هابطاً سلم السفينة التى كانت مزدحمة بالركاب ذوى الأجناس المختلفة والنحل المتعددة . وكانت هذه السفينة من تلك السفن الشراعية الكبيرة ذات الأشرعة الواسعة الرحبة المصنوعة من خشب الخيزران المجدول . وتذكرت حينئذ حقيبة أمتعتى فنظرت إلى المقر الذى كانت موضوعة فيه فى أحد جوانب السفينة ، فوجدتها قد أنزلت إلى القارب الذى سيقلنا إلى الساحل ووضعت فى مكان ظاهر فيه

ولما اكتمل عددنا فى القارب لوحت بيدى لربان السفينة الذى أخرج من جيبه فى تلك اللحظة منديلا أبيض وأخذ يلوح لى به مبتسما فى الفضاء الواسع العريض ، وقلدنى باقى الركاب الذين كانوا معى فى ذلك ، فأخذوا يلوحون له وللركاب الذين تركوهم يستأنفون سفرهم على سطحها بأيديهم طوراً ، وبمناديلهم الصغيرة البيضاء طوراً آخر ، ودموع الفرح والغبطة تترقرق فى عيونهم التى كان يشع منها بريق السعادة والسرور . وما زلنا على هذا الوداع المؤثر الحار حتى اختفت السفينة عن أبصارنا اختفاء تاماً ، وأصبحت تتراءى لنا لبعد المسافة التى كانت تفصلنا عنها كأنها شبح من الأشباح القاتمة السوداء .

ولما اقتربنا من الساحل تراءى لى عن بعد أشجار جوز الهند المحملة بذلك الثمر الشهى الذى يكثر زرعه فى تلك الأنحاء ، ورأيت من خلالها سقوف الأكواخ الخشبية الرمادية اللون التى يقطنها أهالى هذه المنطقة الاستوائية الحارة . وأشار لى وقتئذ أحد الصينيين الذين كانوا برفقتى فى القارب بيده إلى كوخ أبيض كبير قائم على مقربة من الساحل وسألنى بالإنجليزية التى كان يتكلمها بطلاقة وصدق كأحد أبنائها :

— أتعرف من يقيم فى هذا الكوخ الأبيض المرتفع ؟

فتظاهرت بأننى لا أعرفه وهززت رأسى متأسفاً وقلت : لا !

— إن الذى يقيم بهذا البناء هو حاكم هذا الإقليم ، وهو انجليزى الجنسية كما أعلم ...

فشكرته على هذه المعلومات التى أدلى بها إلى ثم سكت !

ولو كان هذا الصينى يعلم أننى سأقيم مع هذا الحاكم تحت سقف واحد لمدة من الزمن ، لوفر على نفسه مشقة هذا التعريف الذى كنت على دراية به أكثر منه ! وقد كان على حينئذ خطاب توصية إليه من ربان السفينة التى أقلتنى إلى هذا المكان ، لأنه لم يسبق لى مشاهدته أو التعرف إليه من قبل

وحين رسا القارب بنا وهبطنا إلى الساحل الرملى البديع ، شعرت فجأة بتلك الوحشة التى يشعر بها كل شخص تطأ قدماه أرضاً غريبة ليست له بها عهد من قبل ، وقد وقفت برهة على الساحل أتأمل الشمس وهى تلقى بأشعتها الذهبية التى كانت تتألق على مياه البحر فتزيده بهاء وسناء وروعة ...

ولم ألبث أن شعرت ببعض الخجل والارتباك وأنا أتقدم إلى كوخ الحاكم بخطوات وئيدة ثابتة ، وقد حملت حقيبة أمتعتى فى يدى اليمنى ، وقبعتى العريضة البيضاء فى يدى اليسرى ، وأخذت أسائل نفسى أثناء سيرى قائلا : « كيف أقدم نفسى إليه ؟ بل كيف يخطر لى ببال — وأنا الغريب عن تلك المنطقة — أن أبيت وإياه فى مسكن واحد ، وأتناول ما يقدمه لى من طعام وشراب — وأنا لا أعرفه — حتى تأتى السفينة التى ستقلنى إلى الجهة التى أزمعت الوصول إليها ؟ ! »

ولكنى لم ألبث — حينما وصلت إلى باب الكوخ — أن وفرت على نفسى مشقة هذه الأسئلة الغريبة المحرجة التى أخذت تتوارد على ذهنى بسرعة هائلة ، فأنزلت حقيبة أمتعتى إلى الأرض

وأخرجت من جيبي خطاب التوصية الذى كنت أحمله معى وناديت أحد الخدم الواقفين بالباب وطلبت منه أن يسلمه إلى الحاكم يداً بيد . ولم يمض على دخول الخادم بضع دقائق حتى خرج إلى من داخل الكوخ رجل وسيم الطلعة ، قوى البنية ، ذو وجه باش أحمر يدل على إفراطه فى الشراب ، وعينين زرقاوين حادتى النظرات ، وكان يبدو من هيئته أنه فى العقد الرابع من عمره أو دون ذلك بقليل ، وقد حيانى تحية قلبية خالصة كما لو كان يعرفنى من سنين ، واستقبلنى بحفاوة شديدة وسرور بالغ لم أكن أتوقعهما منه ، وجذبنى من يدى برفق ، ثم نادى أحد الصبية وأمره بإحضار بعض المشروبات المنعشة ، ونادى الآخر وأمره بأن يحمل حقيبتى ويدخلها الكوخ

وأراد الحاكم أن ينسينى ما كنت أشعر به فى تلك الآونة من الخجل والارتباك لوجودى فى هذا المكان الغريب ، فتلطف معى فى الحديث وقال :

— إنك لا تعرف كم أنا مسرور برؤيتك ، ولا سيما أن ربان السفينة الذى أرسلك إلى من أعز أصدقائى وأخلص رفقائى ، ولذلك أرجو أن تعتبر نفسك هنا كأنك فى بيتك

فابتسمت له وشكرته بإيماءة من رأسى على أدبه الجم وحسن استقباله إياى ...

ولم يلبث مضيفى أن استأذننى وذهب لينجز بعض أعماله الضرورية التى لا تحتمل التأجيل . فلما فرغ منها عاد إلى وتمدد بجانبى على مقعد طويل من القماش ، وأخذ يجاذبنى أطراف الأحاديث ، ويروى لى الشيء الكثير من مغامراته ومخاطراته فى تلك البلاد ...

ولما هبطت درجة الحرارة قليلا ، خرجنا للنزهة ، وطفنا ببعض الأجزاء الهامة فى تلك المنطقة ، ومتعنا أنظارنا بجمال الطبيعة الساحر ، ثم عدنا قبيل الغروب وقد تصببت أجسامنا من العرق ، ولم أجد فى ذلك الوقت ما ينقذنى من تلك الحرارة الشديدة سوى أن آخذ حماماً بارداً ... ففعلت .. وقد شعرت من بعده بلذة عجيبة ، ونشاط جسمانى غريب ، أنسيانى ما كنت أعانيه منذ لحظات من ضيق بالغ ، وعذاب أليم !

وبعد أن فرغنا من تناول العشاء استأذنت صاحبى أن أنام لأننى كنت منهوك القوى من وعثاء السفر . وبالرغم من أن رفيقى كان يرغب فى التحدث إلى طول الليل ، إلا أننى استأذنته مرة أخرى ورجوته أن يرشدنى إلى الحجرة التى سأقضى فيها ليلتى . فقال صديقى وهو يقودنى من يدى إلى غرفتى :

— كما تشاء ياصاحبى ... ولن أثقل عليك الليلة بسماع أحاديثى المملة ، وأقاصيصى المتعبة ! !

وكانت الغرفة التى أدخلنى فيها كبيرة رحبة ذات شرفة واسعة من الجانبين ، ومؤثثة برياش بسيط لا بأس به ، وفى ركن من أركانها نصب سرير كبير مغطى بكلة رقيقة من الدانتلة البيضاء لتقى من يرقد فيه من لدغات البعوض التى كانت تعد من أخطر الحشرات وأشدها فتكاً بحياة بنى الإنسان فى تلك الجهات

وضحك صديقى وقال لى وهو يشير بيده إلى السرير .

وإن هذا الفراش خشن بالنسبة إليك ، ولكنه مع الأسف أحسن ما عندنا فى هذه البلاد !

فابتسمت له ابتسامة رقيقة وقلت :

— إن هذا لا يهمنى مطلقاً ، ولن يؤثر ألبتة فى نومى ما دمت أشعر بحاجة ملحة إلى الراحة بعد هذه الرحلة المضنية :

ونظر رفيقى إلى الفراش مرة أخرى متمعناً وقال :

— لقد كان آخر من نام فى هذا الفراش رجل هولاندى . ولهذا الرجل قصة عجيبة مؤلمة . ولا أجد عندى مانعاً من سردها عليك بشرط أن تسمح لى أولا بذلك حتى لا يكون فى هذا مضايقة لك .

وبالرغم من أننى كنت فى حاجة شديدة إلى النوم كما قلت ، إلا أن اللهجة التى مهد بها رفيقى لهذه القصة جعلتنى أتشوق لسماعها منه ، ولذلك لم ألبث أن قلت :

— لا بأس ياصاحبى ... أسرد على قصتك وكلى آذان صاغية لك .

فجلس رفيقى على حافة الفراش وجلست قبالته ثم استجمع شتات أفكاره وقال وقد ارتسمت على جبينه آيات التفكير العميق :

— لقد جاء هذا الرجل إلى هنا على نفس السفينة التى أتيت

عليها ، وقد حضر إلى مكتبي مباشرة وسألني عما إذا كنت أعرف فندقاً في تلك البلدة يمكنه أن يقضي فيه ليلته ، فلما أخبرته بأنه لا توجد فنادق في تلك البلدة على الإطلاق هز رأسه متأسفاً وهم بالخروج من عندي بعد أن حياني تحية رقيقة مؤدبة . ولكني لم ألبث أن أشفقت عليه فناديته وعرضت عليه أن يبيت في مسكني، فقبل ذلك بعد تردد قليل . وكان هذا الرجل الهولاندي يحمل في يده قيثارة (كنجة) صغيرة غالية الثمن، فلما رآني أحدق النظر فيها بإمعان ابتسم لي وقال (إن هذه القيثارة هي كل ما أحضرته معي في تلك الرحلة ، وهي تسليتي الوحيدة في أوقات فراغي الممل ، ولذلك تراني أعزها وأفضل حملها معي في كل مكان أذهب إليه .)

وكان هذا الرجل ذا وجه شاحب نحيل ، ورأس مستدير يعلوه شعر أسود كث ، وعينين رماديتين تدل نظراتهما القلقة المتحيرة على ما يعانيه صاحبهما من خوف واضطراب ، أما جسمه فكان هزيلا مفرطاً في الطول بدرجة غير عادية . وكان يلوح عليه أنه تجاوز الأربعين بقليل ، وقد دلتني ملامح وجهه الجامدة على ما به من مرض نفساني غريب ، إذ كان يتلفت وراءه بسرعة زائدة لأقل صوت يسمعه . وكان يتكلم الإنجليزية بطلاقة عجيبة ، ولولا تلك السكنة الأجنبية التي كانت تظهر في بعض كلماته لظننت أنه إنجليزي قح . وكان يحب الحديث ، ويجيد الكلام إلى درجة تضطر سامعه إلى الإصغاء إليه ، والانتباه لحديثه بلذة وشغف .

وكان لدي بعض الأعمال الضرورية التي يجب أن أنتهي منها على عجل ، فطلبت بلطف أن يسبقني إلى الغرفة المجاورة ، وأخبرته أنني سأوافيه إليها بعد قليل . وبينا أنا أخاطبه إذا بسكرتيري الخاص يفتح الباب فجأة ويدخل بدون استئذان كما اعتاد أن يفعل ذلك في بعض الأحيان . فارتاع الهولاندي لهذه المباغتة واصفر وجهه حتى أصبح يحاكي في شحوبه وجوه الأموات ، وأخذ جسمه النحيل يرتعد بشدة وعنف من قمة الرأس إلى أخمص القدمين ، وأخرج بسرعة مسدسه من جيبه الخلفي ، فذعرت لذلك ذعراً شديداً وصحت فيه بأعلى صوتي قائلا (ماذا تفعل يا سيدي ؟ ولم أخرجت مسدسك من جيبك ؟)

ولما رأى الهولندي أن القادم سكرتيري ندم على فعلته ندماً شديداً وشعر ببعض الخجل والارتباك ثم أعاد مسدسه إلى جيبه وتهالك على أقرب مقعد منه وهو يلهث من فرط ما اعتراه في تلك اللحظة ، ولما تمالك أعصابه وعاد إليه صوابه قال لي بخجل ظاهر ، (أرجو معذرتي يا سيدي فإنني رجل محطم الأعصاب كما رأيت) .

فأمنت على كلامه بهزة خفيفة من رأسي وقلت (هدئ روعك يا سيدي ولا تخف من شيء) .

ولم يكن يلوح عليه أنه قد أفرط في الشراب حتى تصدر عنه تلك الفعلة المنكرة ، وقد ظننت لأول وهلة أنه قد يكون أحد المجرمين الذين يتعقبهم رجال الشرطة ، ولكني لم ألبث أن أبعدت هذه الفكرة عن رأسي لأنه ليس من المعقول ، أن يجازف بالدخول إلى مكتبي وهو يعلم أنني الحاكم العام لهذه المنطقة فيعرض بذلك نفسه لإلقاء القبض عليه في أقرب فرصة ، وأسرع وقت :

ولم ألبث أن قلت له مشفقاً (يستحسن يا سيدي أن تستريح قليلا في الغرفة المجاورة حتى تستعيد هدوءك ، وتسترد قواك ، وسأوافيك إليها بعد قليل ...)

فقام من مقعده متثاقلا وذهب إلى الحجرة المجاورة لمكتبي ولما عدت إليه بعد أن أنجزت عملي وجدته واقفاً في وسط الحجرة وهو يدور ببصره في كل ركن من أركانها ، وبالرغم من أنني رأيته قد استرد هدوءه ، واستعاد ثباته عجبت لوقوفه وسألته قائلا (لم تقف وسط الحجرة هكذا ؟ إنك تكون أكثر راحة لو تمددت على أحد هذه الكراسي الطويلة ...)

ولكنه ابتسم ابتسامة صفراء وأجاب باقتضاب (إنني أفضل الوقوف هكذا !)

فاستغربت جداً لهذه الإجابة المقتضبة وقلت بلهجة لا تخلو الاستياء (إن هذا عجيب منك حقاً ، لأن من يراك في وقفتك هذه يظن أنك مراقب ، وقد يداخله الشك في أمرك لأول وهلة !)

(البقية في العدد القادم) محمد عبد اللطيف حسن